في رحاب الإمام الصادق (عليه السلام)

الشيخ فوزي آل سيف

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

الحمد لله رب العالمين والصلاة
والسلام على محمدٍ وآله الطاهرين

بين يدي القارئ والقارئة

قبل أحد عشر عاما صدر كتاب (رجال حول أهل البيت)، وبعده بثمانية أعوام صدر كتاب (نساء حول أهل البيت)، وعندما أريد إعادة طباعة الكتابين رأى بعض الإخوة تجزئة هذين الكتابين بحيث يصدر كتيب حول كل معصوم، وأصحابه (رجالا ونساء)، فكان هذا الذي بين يديك، وهو يحقق عدة أمور، منها سهولة تداول كل قسم من أقسامه، بخلاف ما إذا كان أربعة مجلدات كبيرة، ومنها أن الفئة المخاطبة به هي الفئة الشابة وهم يقبلون على الكتاب الصغير حجما، أكثر من إقبالهم على كبير الحجم، ومنها أنه من خلال هذا الجمع سيتم الإحاطة بحياة المعصوم من جهات متعددة.. لكل هذه الأمور، تم تنسيق الكتابين بهذا النحو.

وها هي بين يديك إضمامة عطر من بستان رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) تحتوي على حياة خمسة من الرجال الرساليين، وخمس من المؤمنات القانتات، وقد قدمنا مقدمة قبل فصل النساء تحاول معالجة تلك الروايات التي يظهر منها شيء من القسوة في حق المرأة أو عدم الاعتراف بحقها، وبينا ما هو المقصود من تلك الروايات..

الإمام جعفر بن محمد (عليه السلام)

أبو عبد الله الصادق

٨٣ ـ ١٤٨ هـ

ولد سنة ٨٣ هـ وتوفي سنة ١٤٨هـ وعمره ٦٥ سنة، عاش منها ١٢ سنة مع جده السجاد، ومدة إمامته ٣٤ سنة.

عاصر من حكام الأمويين هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد ومروان بن محمد (الحمار)، ومن حكام العباسيين أبو العباس السفاح، والمنصور.

تميز حكم الأمويين تلك الفترة بالضغط على الأمة. واللعب بثرواتها، باستثناء فترة حكم عمر بن عبد العزيز وكان شعارهم في ذلك «احلب الدرّ فإن انقطع فاحلب الدم»، وزاد في أيام سليمان ويزيد والوليد الفساد الأخلاقي لأنهم ـ وهم الحاكمون ـ لم يكونوا يمتنعون عن التظاهر به، وفي نفس الوقت كثرت الانتفاضات والثورات ضد هذا الحكم.

كما تميز حكم العباسيين (أيام السفاح والمنصور) بكونه لا يزال طري العود ولم يستحكم، وأنه كان لتوه قد رفع شعارات الدعوة إلى (الرضا من آل محمد)..

وقّر الظرف المذكور (أواخر أيام الأمويين وأوائل

أيـام العباسـيين) فرصـة مناسـبة للإمـام الـصادق (عليـه السلام) لأداء رسالته الثقافية، لانشغال الحاكمين بأنفسهم.. فكـان أن أسـس مدرسـة علميـة بلـغ عـدد تلاميـذها أربعـة آلاف. نقلـوا عـن الإمـام الـصادق علمـاً كثيـراً ودونـوه فيمـا عـرف بالأصـول الأربعمائـة التـي اعتمـد عليهـا المحـدثون فيمـا بعـد لتـأليف الموسـوعات الحديثيـة الموسـعة. كمـا نقـل عنــه تلاميــذه مختلــف فنــون العلــم كالفلــسفة والكيميــاء و الطب.. وغيرها.

ثار في أيـام الأمـويين عمّـه زيـد بـن علـي بـن الحسين، «ولـو ظفـر لـوفى««وكـان زيـد يتمتـع بتأييـد الإمـام الـصادق الخفـي، كمـا ثـار فـي أيـام العباسـيين محمـد بـن عبـد الله (النفس الزكية)، وأخوه إبراهيم.

رفـض الإمــام الـصادق (عليــه الـسلام) المــشاركة المباشرة في الثورات، كما رفض استدراج قـادة العباسيين ولـو كـان بعضهم قد عـرض عليـه ذلـك بحسن نيـة، وذلـك لأن تقييمه للظرف والرجال كان (مـا أنـت مـن رجـالي ولا الزمان زمـانـي) وأثبـت جريـان الأحـداث فيمـا بعـد صـواب ذلك التقييم.

شـهدت أيـام الإمـام الـصادق حركـات فكريـة خطيـرة، كــان منهــا حركــة الزندقــة، والتــي لــم يــستطع الأمويــون والعباســيون مواجهتهــا بــالرغم مــن توســلهم بالــسيف والتصفية الجسدية للزنادقة، لأن الفكر الخـاطئ إنمـا يقـاوم بالفكر السليم لا بالسيف، وكـان منهـا حركـة الغـلاة، وهـي وإن كــان ظاهرهــا رفــع شــأن الأئمــة إلاّ أن واقعهــا كــان ينــسف أرضــية الالتــزام الــديني، لــذلك قاومهــا الإمــام

الصادق، وحارب دعاتها، وتبرأ من زعمائها، كما أوضح النظر الصحيح في المسألة.

كان للمنصور العباسي معه مواقف وحاول أن يقتله أكثر من مرة، بدعوى أنه يحضر للثورة ضد المنصور وأنه يجمع السلاح، والأموال، ولأن الإمام (عليه السلام)كان في غير هذا الاتجاه حقيقة. إذ كان يقيم الظروف بما لا تنتهي إلى هذا، وأن الداء لم يكد يعالج بالانتفاضة المسلحة، فكانت محاولات المنصور تنتهي إلى الفشل.

قضى (عليه السلام) ـ مسموما على المشهور ـ عام ١٤٨ هـ. ودفن في المدينة المنورة.

رجال حول الإمام الصادق (عليه السلام)

محمد بن علي بن النعمان الكوفي الصيرفي

مؤمن الطاق

لئن كان للسيف صليل، وحدّ باتر، فللعلم جلال وأثر قاهر.

وإذا كان الكثير من الناس يتصورون أن الحضارة تصنع في الكليات العسكرية ومصانع الأسلحة فإنهم يرتكبون بذلك خطأ فادحا، ذلك أن السيف لم يكن إلاّ من أجل صيانة منجزات القلم الصادق، وللدفاع عن مكتسبات العلم النافع.

وبالرغم من أننا نجد حياة العلماء والمكتشفين والمبدعين خالية من الضجيج بعيدة عن الصخب، عكس حياة العسكريين وأصحاب القدرة التي لا تخلو في يوم من أيامها من حادث مثير. إلاّ أن تلك الحياة الهادئة في ظاهرها والتي تضج بالحيوية والحركة الفكرية في داخلها لا تلبث أن تنقل حياة الأمم خطوات إلى المستقبل في حركة كبيرة واستثنائية.. حركة في فهم دينها أو وعي واقعها بشكل صحيح، أو في تسخير قدرات الطبيعة المحيطة بها، أو في الاستفادة من تجارب الأمم لكيلا تكرر الكارثة.

ـ لذلك نجد أنفسنا في تاريخ الأمة الإسلامية

خصوصاً مدينين لفضل العلماء والفقهاء وأمثالهم، لا لمن حمل سيفه ووضعه على الأخضر واليابس، وإذا كان الشاعر قد قال:

السيف أصدق أنباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب

فقد أثبت التاريخ عكس ذلك، وانتهى السيف بينما بقي الكتاب، وكان أصدق، وأبقى أثراً، وأعمق وجوداً في نفوس الأمم، بل ربما كان ذلك السيف الذي مدحه الشاعر لم يلبث أن انقلب على من مدحه، عندما انفصل عن الكتاب والعلم.

لذلك يأتي عرضنا لحياة هؤلاء الرجال العلماء، عرضاً للعلم، وتخليداً للفكر الذي انتموا إليه. وفي طليعة هؤلاء مؤمن الطاق محمد بن علي بن النعمان البجلي الكوفي.

بالرغم من أنه كان صيرفياً يعمل في طاق المحامل بالكوفة، إلاّ أنه لم يشتهر بها إنما اشتهر بتصريف الكلام، ونقد العقائد والنحل، مدافعاً في ذلك عن منهج أهل البيت(عليهم السلام)، فلا تراه قائماً من جلسة حوار إلا ليجلس - إلى حلقة نقاش وهكذا فما أن يصل إلى مكان حتى يستلمه أهل ذلك المكان بالأسئلة.

وبالرغم من أن مسكنه الكوفة إلاّ أنه - تبعاً لتجارته ولمسؤولياته - كان ينتقل بين المدن الإسلامية وفي طليعتها المدينة المنورة حيث مركز الثقل الديني، المتمثل في وجود الإمام الصادق (عليه السلام) حيث كان يتزود

من علمه وفقهه، ثم يعود إلى مركز عمله. وفي كل تلك المناطق لم يكن مجهولاً ولا نكرة.

ولدقته في النقد للدراهم، والعقائد، فقد لقبه أعداؤه بشيطان الطاق، ذلك أنه لاحاه قوم في درهم، فقال إنه أصيل، وقال إنه ستوق أي مزيف وبينما أجمع أولئك على صحة الدرهم أصر ابن النعمان على أنه مزيف، وبعد الفحص تبين صحة كلامه وبطلان كلامهم، الأمر الذي حيرهم وأدهشهم فسموه شيطان الطاق (أي طاق المحامل حيث يعمل)، وفي العقائد كذلك فقد تفوق عدداً من المرات على منافسه أبي حنفية فسماه بشيطان الطاق.

ولمعرفة الإمام الصادق (عليه السلام) باستيعاب مؤمن الطاق لمعالم الشريعة، وتفوقه فيها، وفنه في إدارة الحوار مع مخالفيه في العقيدة، لذلك فإنه قد سمح له بأن يدخل في الحوار كيف ومع من شاء وبينما منع الإمام آخرين من هذا الأمر، نظراً لعدم كفاية قدرتهم على مواجهة الخصوم مما يحسب آنئذٍ على أصل المذهب.

فعن أبي خالد الكابلي قال رأيت أبا جعفر صاحب الطاق وهو جالس في المسجد وأهل المدينة أزاره، وهو دائب يجيبهم ويسألونه، فدنوت منه وقلت: إن أبا عبد الله نهانا عن الكلام، نقال: أوَأمرك أن تقول لي؟!. فقلت: لا ولكنه أمرني أن لا أكلم أحداً.

قال: فاذهب وأطعه فيما أمرك. فدخلت على أبي عبد الله فأخبرته بقصة صاحب الطاق فتبسم أبو عبد الله وقال: يا أبا خالد إن صاحب الطاق يكلّم الناس فيطير وينقض وأنت إن قصوك لن تطير.

وإذا كـان الجدال العقيم الـذي لا يهدف الوصـول إلـى العلـم مرفوضـا وغيـر محبـذ، ومـا أراد الله بقـوم شـراً إلاّ ابتلاهم بالجدل، فإن النقاش العلمـي، والدفاع عن العقيدة، والاحتجاج لها أمر مطلوب، وهو أحد مصاديق {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}. ولعل هذا أحد أسباب تشجيع الأئمة E لأصحابهم الكفوئين، للنقاش والدفاع عن ثقافة أهل البيت.

ونتعرض هنا إلى بعض مناظراته مع مخالفيه، ونشير إلـى أن هـذا الأسلوب (العلمـي) هـو الـذي يجب أن يكـون حاكماً على العلاقة بين أهل الخلاف، لا الشنق والإعدام كما هي طريقة الحكام أو التكفير والتفسيق كما هي طريقة (أنصاف العلماء).

مع ابن أبي خدرة الخارجي

فقد اجتمع قوم من الخوارج وقوم من الشيعة بالكوفة عند أبي نعيم النخعي فقال ابن أبي خدرة الخارجي: إن أبا بكر أفضل من علي ومن جميع الصحابة بأربع خصال: فهو ثان لرسول الله، دفن في بيته وهو ثاني اثنين معه في الغار وهو ثاني اثنين صلى بالناس آخر صلاة قبض بعدها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو ثاني صديق من الأمة.

وكان مؤمن الطاق حاضراً.. فانبرى له قائلاً: يا ابن أبي خدرة..

ـ أترك النبي (صلى الله عليه وآله) بيوته التي أضافها

الله إليه ونهى الناس عن دخولها إلاّ بإذنه، ميراثاً لأهله وولده؟! أو تركها صدقة على المسلمين؟!.

فإن تركها ميراثا لولده وأزواجه فقد ترك تسع زوجات، فليس لعائشة إلا نصيب إحداهن (وهو الثمن وبالطبع فإن نصيبها لم يكن ليتسع لدفن أبي بكر). وإن كان تركها ميراثاً لجميع المسلمين فإنه لم يكن له نصيب من البيت إلا كما لكل رجل من المسلمين.

وأما قولك إنه ثاني اثنين إذ هما في الغار فإن مكان علي هذه الليلة على فراش النبي وبذل مهجته دونه أفضل من مكان صاحبك في الغار.

وأما قولك في صلاته بالناس فقد تقدم ليصلي بالناس في مرض رسول الله (صلى الله عليه وآله) فخرج النبي وتقدم وصلّى بالناس وعزله عنها ولو كان قد صلّى بأمره لما عزله من تلك الصلاة.

وأما تسميته الصديق فهو شيء سماه الناس وقد أوجب الله على صاحبك الاستغفار لعلي بن أبي طالب بقوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْأِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}[1].

وكان يتولى مناظرة المنحرفين، بأجوبة يعدها من قبله أو يستمعها مباشرة من الإمام (عليه السلام) .

([1]) رجال الكشي ٢/ ٤٢٤.

مع ابن أبي العوجاء

ابن العوجاء واحد من كبار زعماء الزنادقة في وقته، وكان ـ مع أصحابه ـ يصطنعون الشبهات ويلقونها بين ضعاف المسلمين وحتى بعض علمائهم، فكانوا يضطربرن في الجواب ولا يستطيعون، وزاد قيام العباسيين بمتابعتهم بالقتل، والعرض على السيف من اشتهار أفكارهم، فبينما كان ينبغي الرد على الشبهة بالبصيرة، وعلى الريب باليقين، قام العباسيون بالرد على كل ذلك بالسيف..

وفي المقابل كان أهل البيت(عليهم السلام) وهم غوث الناس ـ يواجهون تلك الشبهات بقناعات قوية، وأجوبة، ويكلفون أتباعهم بالتصدي لها.

فقد روى مؤمن الطاق:

قال لي ابن أبي العوجاء مرة: أليس من صنع شيئاً وأحدثه حتى يعلم أنه من صنعته فهو خالقه؟!.

قلت: بلى.

قال: فأجلني شهراً أو شهرين ثم تعال حتى أريك.

فجئت فدخلت على أبي عبد الله (عليه السلام) فقال لي:

ـ أما أنه قد هيأ لك شأنين[1]، وهو جاء معه بعدة من

---

(1) الشأن ملتقى العروق التي يجري منها الدمع إلى العين، وهنا بمعنى الجمجمة.

أصحابه ثم يخرج لك الشأنين قد امتلأ دوداً، يقول هذا الدود من فعلي، فقل له: إن كان من صنعك وأنت أحدثته فميز ذكوره من الإناث.

وبالفعل فقد التقى محمد بن علي النعمان مؤمن الطاق مع ابن أبي العوجاء حسب الموعد بينهما، وكان قد أتى معه بما كان قد ذكر الإمام الصادق (عليه السلام)، وقال له:

ـ إن كان من صنعك فميز الذكور من الإناث.

وبالطبع لم يستطع، التمييز، ولا التبرير إنما قال:

ـ هذه والله ليست من أبزارك!! هذه التي حملتها الإبل من الحجاز[1].

مع أبي حنيفة:

لمؤمن الطاق مناظرات مع مخالفيه لكنها مع أبي حنيفة النعمان بن ثابت تكتسب طرافة خاصة، ذلك أن أبا حنيفة لما كان لا يمثل في حينه مذهب السلطة والحكم كان بالإمكان النقاش معه بحرية، إضافة إلى أن هذا النوع من المناظرات مهما كان لاذعاً فإنه لا يفسد للود قضية، ولنأخذ نماذج من تلك المناظرات الطريفة، فقد دخل على أبي حنيفة يوماً فقال له: أبو حنيفة:

ـ بلغني منكم معشر الشيعة أن الميت منكم إذا مات كسرتم يده اليسرى لكي يعطى كتابه بيمينه..

---

(1) تنقيح المقال ٣/ ١٦٢

وللأسف فإن هذه الدعايات التي عاناها أتباع أهل البيت(عليهم السلام) في ذلك الزمان لا تزال في هذا العصر، عصر النور، وسرعة الاتصالات، والعلم؟! ولا يكلف أحدهم نفسه لكي يطلع على الحقائق أن يتحرك من مقعده لكي يطلع على ما كتبه هؤلاء بأقلامهم، فانظر، (فما أشبه الليلة بالبارحة)!.

وبالطبع لم يجد مؤمن الطاق جواباً لهذا السؤال - النكتة إلا نكتة من نوعه.

فقال: مكذوب علينا يا نعمان ولكن بلغني عنكم معشر المرجئة أن الميت منكم إذا مات قمعتم في دبره قمعاً فصببتم فيه جرة من ماء لكيلا يعطش يوم القيامة..

فقال أبو حنيفة: مكذوب علينا وعليكم.

ولقيه بعد وفاة الإمام الصادق (عليه السلام) فقال لمؤمن الطاق: مات إمامك!!.

فأجابه: لكن إمامك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم!! يقصد إبليس.

وكما كان مجادلاً حاذقاً ومتكلماً ناطقاً، فقد خلف عدداً من الكتب، فله كتاب الإمامة وكتاب المعرفة، وكتاب الرد على المعتزلة في إمامة الفضول، وكتاب الجمل في أمر عائشة وطلحة والزبير، وكتاب إثبات الوصية، وكتاب مجالسه مع أبي حنيفة وكتاب الاحتجاج في إمامة علي (عليه السلام) ، وكتاب كلامه مع الخوارج.

هشام بن الحكم

ولد سنة ١١٣ هـ

الوفاة: سنة ١٨٨ هـ في الاختفاء من هارون الرشيد

«هشام بن الحكم رائد حقنا وسابق قولنا المؤيد لصدقنا والدامغ لباطل أعدائنا من تبعه وتبع أثره تبعنا ومن خالفه وألحد فقد عادانا وألحد فينا»

الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)

مع انتمائه إلى خط أهل البيت وجد ضالته.

ذلك أنه بالرغم من قدرته على الجدل وإقناع الخصم بحق أو باطل، إلاّ أنه كان يجد كلامه وإن بدا مقنعاً للسامع، وغير قابل للرد في نظر المجادل إلاّ أنه كان يستطيع بسهولة أن يدرك أن هذا الكلام غير صحيح وإن بدا مرتب الألفاظ ومحكم المقدمات.

فقد تستطيع إقناع الآخرين بما لديك لضعف حجتهم، وقلة اطلاعهم ولكنك تدرك أن ما قلته لا يمت للصواب بصلة.

ومع انتمائه لمنهج أهل البيت واطلاعهم على ثقافتهم، استطاع أن يغدو معجزة زمانه لأنه جمع الحق إلى لسانه وقدرته.

فكيف صنعت هذه المعجزة على يد هشام بن الحكم؟!

لنكن مع البداية.. حيث كان هشام جهمياً من أتباع الجهم بن صفوان الذي كان يؤمن بأن الصفات التي يوصف بها البشر كالعلم والقدرة والحياة لا يمكن وصف الله تعالى بها، الأمر الذي يستلزم تعطيل أكثر الصفات.

وكان هشام في مذهبه هذا قوي الحجة، هذا وهو لم (يخط عارضه بعد) أي لا يزال في ميعة الشباب، وأوائله.

وجاء ذلك اليوم الذي كتب فيه من السعداء!! ولنترك عمه عمر بن يزيد يتحدث:

.. وكان ابن أخي هشام يذهب في الدين مذهب الجهمية خبيثاً فيهم (أي قوياً) فسألني أن أدخله على أبي عبد الله ليناظره؟! وهنا يتبين كم كانت ثقته في نفسه كبيرة.

فأعلمته أني لا أفعل ما لم أستأذنه فيه، فدخلت على أبي عبد الله فاستأذنت في إدخال هشام عليه فأذن لي، فقمت من عنده، وخطوت خطوات، فذكرت رداءته وخبثه، فانصرفت إلى أبي عبد الله (عليه السلام) فحدثته رداءته وخبثه، فقال لي أبو عبد الله: يا عمر تتخوف عليّ!!.

فخجلت من قولي وعلمت أني قد عثرت!! إذ كيف أخاف على الصادق من هشام؟! والصادق هو الأمين على علوم الوحي، وعنده ما نزلت به الكتب ومواريث الأنبياء!!.

وهكذا خرج عمر خجلاً إلى ابن أخيه هشام، ودخل معه وجلسا، «فلما تمكن من مجلسه سأله أبو عبد الله عن

مسألة فحار فيها هشام وبقي، فسأله هشام أن يؤجله فيها فأخله أبو عبد الله، فذهب هشام واضطرب في طلب الجواب أياماً فلم يقف عليه فرجع فأخبره أبو عبد الله بها وسأله عن مسألة أخرى فيها فساد أصله وعقم مذهبه فخرج هشام من عنده مغتمّاً متحيراً «قال: فبقيت أياماً لا أفيق من حيرتي».

وكان لا بد لهشام الذي استطاع أن يعجز غيره من العلماء بمسائله ونقاشه بالرغم من عقم محتوى مذهبه، كان لا بد له أن يعترف أن قدرته الكلامية لم تغن عنه من حق الإمام شيئاً، وأنه الآن يقف أمام عالم لا كالعلماء، إنه نفحة من رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وثمرة طيبة من علي (عليه السلام).

«فسألني هشام أن أستأذن له على أبي عبد الله ثانياً، فدخلت عليه فاستأذنت له فقال أبو عبد الله لينتظرني في موضع سماه بالحيرة لألتقي معه فيه غداً إن شاء الله إذا راح النهار، فجئت إلى هشام وأخبرته بمقالته وأمره فسرّ بذلك واستبشر، وسبقه إلى الموضع الذي سماه.

ثم رأيت هشاماً بعد ذلك فسألته عما كان بينهما فأخبرني أنه سبق أبا عبد الله إلى الموضع الذي كان سمّاه، فبينا هو إذا بأبي عبد الله(عليه السلام) قد أقبل على بغلة له، يقول هشام فلما أبصرت به وقرب مني هالني منظره وأرعبني حتى بقيت لا أجد شيئا أتفوه به ولا انطلق لساني لما أردت من مناطقته، ووقف أبو عبد الله علي مليّاً ينتظر ما أكلمه وكان وقوفه علي لا يزيدني إلاّ تهيباً وتحيراً، فلما رأى ذلك مني ضرب بغلته وسار حتى

دخل بعض السكك، وتيقنت أن ما أصابني من هيبته لم يكن إلا من قبل الله (عز وجل) ومن عظم موقعه ومكانه من الرب الجليل[1].

وهكذا دخل هذا الشاب إلى التجمع الرسالي الذي كان يقوده الإمام الصادق (عليه السلام) ليصل في فترة قصيرة إلى أعلى المراتب، ذلك أن هذا التجمع إنما تحكمه قيم الكفاءة والتقوى فمن كان كفوءاً يتقدم سواء كان صغير السن أو كبيره..

ليس هذا التجمع أسرة مالكة حتى يتقدم فيها الأمير وأبناؤه ولا قبيلة حتى يتقدم فيها الكبير سناً، إنما قيم التفاضل فيه الكفاءة.. لذلك استطاع هشام على حداثة سنه أن يتقدم من هو كبر منه سناً، وأقدم منه انتماء. فقد دخل على الإمام الصادق (عليه السلام) بمنى وهو غلام أول ما اختط عارضاه وفي مجلسه شيوخ الشيعة كحمران بن أعين وقيس الماصر ويونس بن يعقوب وأبو جعفر الأحول (مؤمن الطاق) وغيرهم فرفعه على جماعتهم وليس فيه إلاّ من هو[2] كبر منه سناً، فلما رأى أبو عبد الله أن ذلك الفعل كبر على أصحابه وقال: هذا ناصرنا بقلبه ولسانه ويده».

وكان الإمام الصادق (عليه السلام) كان يستشرف المستقبل حيث سيصبح هشام (الذي فتق الكلام في الإمامة

([1]) رجال الكشي ٢/ ٥٢٩.

([2])تنقيح المقال ٣/ ٢٩٤.

وسهل طريق الحجاج، وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب)، واستمر على ذلك حتى كانت منيته في اختفائه هرباً من هارون الرشيد؟ الذي طلبه كما سيتبين بعدئذ.

ونود هنا أن نشير إلى ملاحظة مهمة، تلك هي أننا سنلاحظ أن أصحاب الصادقين والكاظم (عليه السلام)، كانوا يتميزون في الغالب ـ بقدرتهم على المناظرة، بل إن أدوارهم ربما كانت تتلخص في هذا الاتجاه.. فما هو السبب؟!.

لا.. لم تكن هذه المناظرات ترفاً فكرياً، أو ملح مجالس!!.

إنما كانت جوهر الصراع الدائر آنئذٍ..

ذلك أن الصراع في بدايات أيام العباسيين تحول عما كان عليه أيام الأمويين ليصبح صراع ثقافات وعقائد.. فإضافة إلى انفتاح البلاد الإسلامية على ما سواها من ثقافات بحيث عاد من الطبيعي أن تجد رأس الجالوت، وعمران الصابي، والموبذ المجوسي وعلماء المسلمين في مجلس نقاش واحد، وكل يدلي بما عنده.

إضافة إلى أن العباسيين بعد أن سيطروا على الحكم وجدوا أنهم يعانون (أزمة أيدلوجية) تغطي وجودهم السياسي، فظلّوا يبحثون هنا وهناك وفي هذه السوق كانت العقيدة والثقافة هي السلعة المطلوبة.

ولهذا وجدنا أن هارون الرشيد بالرغم من كونه يتصرف في بلاد بلغت أقصى اتساعها في عهده، بما تؤتي من خراج، وبما تستطيع الخلافة أن تحشد من

عسكر ولكنه يخاف من لسان هشام بن الحكم الذي يراه أشذ عليه من مائة ألف سيف.

إن اللسان هنا بما يستطيع من تهديم عقيدي لشرعية النظام، يقوم فعلاً بدور مائة ألف سيف. لأن محور الصراع قد تغير!! ولذلك يصبح الإعلان عن هذه العقيدة بدوره مبرراً كافياً (لإعدام) صاحبها!!..

ونأخذ نموذجين من مناظرات هشام بن الحكم إحداهما وهو شاب مع شيخ المعتزلة غير المنازع عمرو بن عبيد الذي ثنيت له وسادة الكلام والإفتاء في البصرة، فلنستمع إلى يونس بن يعقوب الذي روى أنه:

كان عند أبي عبد الله (عليه السلام) جماعة من أصحابه فيهم حمران بن أعين ومؤمن الطاق وهشام بن سالم والطيار وجماعة فيهم هشام بن الحكم وهو شاب، فقال أبو عبد الله (عليه السلام): يا هشام! قال: لبيك يا بن رسول الله، قال: ألا تخبرني كيف صنعت بعمرو بن عبيد؟ وكيف سألته؟.

فقال هشام: إني أجلك وأستحيي منك، فلا يعمل لساني بين يديك، قال أبو عبد الله: إذا أمرتكم بشيء فافعله، قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة، وعظم ذلك علي، فخرجت إليه فدخلت البصرة يوم الجمعة، فأتيت مسجد البصرة فإذا أنا بحلقة كبيرة، وإذا أنا بعمرو بن عبيد عليه شملة سوداء من صوف متزر بها وشملة مرتدي بها، والناس يسألونه فاستفرجت الناس فأفرجوا لي، ثم قعدت في آخر القوم على ركبتي.

ثم قلت: أيها العالم أنا رجل غريب فأذن لي فأسألك عن مسألة؟

قال، فقال نعم. قال، قلت له: ألك عين؟ قال: يا بني أي شيء هذا من السؤال أرأيتك شيئاً كيف تسأل؟ فقلت: هكذا مسألتي، فقال: يا بني سل وإن كان مسألتك حمقاً.

قلت: أجبني فيها، قال، فقال لي: سل، قال، قلت: ألك عين؟ قال: نعم قلت: فما ترى بها؟ قال: الألوان والأشخاص، قال، قلت: فلك أنف؟ قال: نعم، قال، قلت؟ فما تصنع به؟ قال: أشتم به الرائحة، قال، قلت: فلك فم؟ قال: نعم قال، قلت: فما تصنع به؟ ـ قال: أذوق به الطعم.

قال، قلت: ألك قلب؟ قال: نعم. قال، قلت: فما تصنع به؟

قال: أميز به كل ما ورد على هذه الجوارح، قال، قلت: أليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟ قال: لا، قلت: وكيف ذاك وهي صحيحة سليمة؟ قال: يا بني الجوارح إذا شكت في شيء شمته أو رأته أو ذاقته ردته إلى القلب فيتيقن اليقين ويبطل الشك، قال، قلت: وإنما أقام الله القلب لشك الجوارح؟ قال: نعم، قال، قلت: فلا بد من القلب وإلاّ لم تستيقن ا لجوارح؟ قال: نعم.

قال، قلت: يا أبا مروان أن الله لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح ويتيقن لها ما شكت فيه، ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافاتهم لا يقيم لهم إماماً يردون إليه شكهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكك.

قال: فسكت ولم يقل لي شيئاً، ثم التفت إلي فقال لي: أنت هشام؟ قال، قلت: لا، فقال: أجالسته؟ قال، قلت: لا، قال: فمن أين أنت! قلت: من أهل الكوفة قال: فأنت إذن هو، قال: ثم ضمني إليه وأقعدني في مجلسه وما نطق حتى قمت. فضحك أبو عبد الله (عليه السلام) ثم قال: يا هشام مَن علّمك هذا؟ قال: قلت يابن رسول الله جرى على لساني، فقال: يا هشام هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى[١].

ولا يغيب عن البال أن نقطة الصراع الأصلية بين فرق المسلمين إنما هي (الإمامة) فـ «أعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة إذ ما سل سيف على قاعدة دينية مثلما سل على الإمامة في كل زمان»[٢].

لذلك وجدنا أن أكثر كتبه ومناظراته كانت في اتجاه إثبات عقيدة أهل البيت في الإمامة، ورد الأفكار الأخرى، ولعل استعراضاً سريعاً لكتبه يثبت هذا الأمر، بالرغم من تنوع مواضيعها: فلهشام:

١ ـ كتاب الإمامة.

٢ ـ الرد على من قال بإمامة المفضول.

٣ ـ اختلاف الناس في الإمامة.

٤ ـ التدبير في الإمامة (مجموع من كلامه).

---

[1]/ رجال النجاشي ٤٣٣ والفهرست للشيخ الطوسي.

[2]/ الملل والنحل للشهرستاني.

٥ ـ الوصية والردّ على من أنكرها.

٦ ـ المجالس في الإمامة.

٧ ـ مناظرته مع الأباضية.

٨ ـ مناظرته في ضرورة احتياج الناس إلى حجة.

٩ ـ في بيان أحقية علي (عليه السلام) بالخلافة دون غيره.

١٠ ـ في أفضلية علي (عليه السلام) على جميع الأمة.

١١ ـ في إثبات وجوب الموالاة لعلي (عليه السلام).

١٢ ـ في لزوم طاعة الإمام الحق.

وله في الحكمة والكلام:

١٣ ـ كتاب الدلالة على حدوث الأشياء.

١٤ ـ الرد على أرسطاليس في التوحيد.

١٥ ـ كتاب الرد على الزنادقة.

١٦ ـ المجالس في التوحيد.

١٧ ـ الرد على أصحاب الطبائع.

١٨ ـ الاستطاعة.

١٩ ـ في الجبر والقدر.

٢٠ ـ كتاب الشيخ والغلام في التوحيد.

كما أنه كتب في أحداث التاريخ الإسلامي خصوصاً تلك التي تنتهي إلى البحث في مسائل الإمامة، فله:

٢١ ـ كتاب الرد على المعتزلة في طلحة والزبير.

٢٢ ـ كتاب الحكمين.

وبالرغم من تقية هشام لكيلا يسلّط على نفسه سيف البغي العباسي، وعدم تظاهره ما أمكنه ذلك ـ بمعاداة خط العباسيين كما ينقل أن يحيى بن خالد البرمكي كان قد وجّه له سؤالاً محرجاً و هاررن الرشيد، يسمع من خلف ستار فقد قال له:

ـ يا أبا محمد (كنية هشام) أما علمت أن علياً نازع العباس إلى أبي بكر؟.

فأجاب هشام ـ نعم.

فسأله: ـ فأيهما كان الظالم لصاحبه؟! فتوقف هشام وقال:

في نفسه إن قلت العباس خفت الرشيد، وإن قلت: علياً ناقضت قولي وعقيدتي.

ثم قال: لم يكن فيهما ظالم!!.

فسأله مرة أخرى: أفيختصم اثنان في أمر وهما محقان جميعاً؟!.

قال هشام: نعم اختصم الملكان إلى داود وليس فيهما ظالم وإنما أراد أن ينبهاه كذلك اختصم هذان إلى أبي بكر ليعلماه ظلمه، فأمسك السائل ووقع الجواب موقع القبول في نفس هارون ومال قلبه لهشام.

إلاّ أن ذلك كان من لحظات الإعجاب بالخصم التي ما تلبث أن تخلي مكانها لموقف الخصومة الثابت، بل تزيد هذا الموقف عمقاً وتركيزاً، إذ أن قوة الحجة، والذكاء البارع الذي يصنع الإعجاب في المرحلة الأولى هو الذي يصنع الخوف ويزيد الترقب في المرحلة الثانية، حيث

يعرف هارون أن يواجه رجالاً من هذا النوع الاستثنائي: بحور علم، ومحيطات معرفة!!.

والتقت هذه الهواجس والأفكار برغبة كامنة لدى يحيى البرمكي الذي كان يرى أن هشاماً أصبح رائد حق أهل البيت وسابق قولهم ومؤيد صدقهم،وكان عسيراً على يحيى البرمكي أن يسكن أمام ذلك، فبدأ يكيد لإنهاء أمر هشام.. وهكذا كان.. فقد جاء ذات يوم إلى هارون الرشيد وقال له: يا أمير المؤمنين إني استبطنت أمر هشام فإذا هو يزعم أن لله في أرضه إماماً غيرك مفروض الطاعة، قال: سبحان الله، قال: نعم، ويزعم أنه لو أمره بالخروج لخرج، وإنما كنا نرى أنه ممن يرى الإلباد بالأرض.

فقال هارون ليحيى: فاجمع عندك المتكلمين وأكون أنا من وراء الستر بيني وبينهم، لا يفطنون بي، ولا يمتنع كل واحد منهم أن يأتي بأصله لهيبتي، قال: فوجه يحيى فأشحن المجلس من المتكلمين، وكان فيهم ضرار بن عمرو، وسليمان بن جرير، وعبد الله بن يزيد الأباضي، و موبذان موبذ، ورأس الجالوت.

قال، فتسألوا وتكالموا وتناظروا وتناهوا إلى شاذ من مشاذ الكلام، كل يقول لصاحبه لم تجب ويقول قد أجبت، وكان ذلك من يحيي حيلة على هشام، إذ لم يعلم بذلك المجلس واغتنم ذلك لعلة كان أصابها هشام بن الحكم.

فلما أن تناهوا إلى هذا الموضع، قال لهم يحيي بن خالد: ترضون فيما بينكم هشاماً حكماً؟ قالوا: قد رضينا أيها الوزير فأنى لنا به وهو عليل، قال يحيى: فأنا أوجّه إليه فأسأله أن يتجشم المجيء، فوجه إليه فأخبره

بحضورهم، وأنه إنما منعه أن يحضره أول المجلس اتقاءه عليه من العلة، فإن القوم قد اختلفوا في المسائل والأجوبة، وتراضوا بك حكماً بينهم، فإن رأيت أن تتفضل وتحمل على نفسك فافعل.

فلما صار الرسول إلى هشام: قال لي: يا يونس قلبي ينكر هذا القول، ولست آمن أن يكون هاهنا أمر لا أقف عليه، لأن هذا الملعون يحيى بن خالد قد تغير علي لأمور شتى. وقد كنت عزمت أن من الله علي بالخروج من هذه العلة أن أشخص إلى الكوفة وأحرم الكلام بتة وألزم المسجد، ليقطع عني مشاهدة هذا الملعون - يعني يحيى بن خالد-.

قال: فقلت: جعلت فداك لا يكون إلاّ خيراً، فتحرز ما أمكنك، فقال لي: يا يونس أترى أتحرز من أمر يريد الله إظهاره على لساني أنى يكون ذلك، ولكن قم بنا على حول الله وقوته.

فركب هشام بغلاً كان مع رسوله، وركبت أنا حماراً كان لهشام، قال: فدخلنا المجلس فإذا هو مشحون بالمتكلمين، قال: فمضى هشام نحو يحيى فسلم عليه وسلم على القوم وجلس قريباً منه، وجلست أنا حيث انتهى بي المجلس.

قال: فأقبل يحيى على هشام بعد ساعة، فقال: إن القوم حضروا وكنا مع حضورهم نحب أن تحضر، لا لأن تناظر بل لأن نأنس بحضورك إذ كانت العلة تقطعك عن المناظرة وأنت بحمد الله صالح ليست علتك بقاطعة عن المناظرة، وهؤلاء القوم قد تراضوا بك حكماً بينهم.

قال: فقال هشام للقوم: ما الموضع الذي تناهيتم به في المناظرة؟ فأخبره كل فريق منهم بموضع مقطعه، فكان من ذلك أن حكم لبعض على بعض، فكان من المحكومين عليه سليمان بن جرير فحقدها على هشام. قال: ثم أن يحيى بن خالد قال لهشام: أنا قد غرضنا من المناظرة والمجادلة منذ اليوم، ولكن إن رأيت أن تبين عن فساد اختيار الناس لإمام، وأن الإمامة في آل الرسول دون غيرهم؟ لقال هشام: أيها الوزير العلة تقطعني عن ذلك، ولعل معترضاً يعترض فيكتسب المناظرة والخصومة. فقال: إن اعترض معترض قبل أن تبلغ مرادك وغرضك فليس ذلك له، بل عليه أن يتحفظ المواضع التي له فيها مطعن فيقفها إلى فراغك ولا يقطع عليك كلامك، فبدأ هشام وساق الذكر لذلك وأطال، واختصرنا منه موضع الحاجة.

فلما فرغ مما قد ابتدأ فيه من الكلام في فساد اختيار الناس للإمام، قال يحيى لسليمان بن جرير: سل أبا محمد عن شيء من هذا الباب؟ فقال سليمان لهشام: أخبرني عن علي بن أبي طالب مفروض الطاعة؟ فقال هشام: نعم. قال: فإن أمرك الذي بعده بالخروج بالسيف معه تفعل وتطيعه؟ فقال هشام: لا يأمرني. قال: ولِمَ إذا كانت طاعته مفروضة عليك وعليك أن تطيعه؟ قال هشام: عد عن هذا فقد تبين فيه الجواب.

قال سليمان: فلِم يأمرك في حال تطيعه وفي حال لا تطيعه؟ فقال هشام: ويحك لم أقل لك أني لا أطيعه فتقول أن طاعته مفروضة، إنما قلت لك لا يأمرني.

قال سليمان: ليس أسألك إلاّ على سبيل سلطان الجدل ليس على الواجب أنه لا يأمرك، فقال هشام: كم تحول حول الحمى، هل هو إلاّ أن أقول لك أن أمرني فعلت، فتنقطع أقبح الانقطاع، ولا يكون عندك زيادة، وأنا أعلم بما تحت قولي وما إليه يؤول جوابي، فتمعر هارون وقال: قد أفصح[١].

وهكذا وجد هشام نفسه مطلوباً للخلافة (في عصرها الذهبي) لكلمة حق قالها في مجلس مناظرة!! فخرج من بغداد، متسللاً إلى الكوفة حيث مركز الولاء لأهل البيت، وطلبه هارون أشد الطلب، وهو لا يزال مختفياً في الكوفة في بيت أحد شيعة أهل البيت(عليهم السلام)حتى وافاه أجله بعد ثلاث سنوات من الاختفاء ودفن في الكوفة.

ولم يطل الأمر ليحيى..

فعلى الباغي تدور الدوائر ومن حفر لأخيه حفرة وقع فيها وأحياناً في أسوأ منها، فما أن تسبب في القضاء على هشام، وقبل أن ينتهي عمر[٢] هشام إلاّ مختفيا في بيت من

([1]) اختيار معرفة الرجال/ ٥٣٨.

([2]) / ذكر بعض الرجاليين أن هشاماً توفي سنة ١٩٩ كما عن النجاشي أو سنة ١٩٧، والذي يظهر أنه لم يبق إلى هذه المدة من الثابت أن وفاته كانت في أيام حكومة هارون الرشيد وهذا قد مات سنة ١٩٣ كما عن مروج الذهب، فالذي يظهر أنه توفي عام ١٨٨ـ خصوصاً أن نكبة البرامكة كانت سنة ١٨٧ باعتبار أنه اختفى ثلاث سنوات بعد تلك المناظرة، كما يؤيد ما نذهب إليه كلام الشيخ في الفهرست حيث قال أنه " توفي بعد نكبة البرامكة

بيوت الكوفة، تحت أشد الطلب من قبل هارون، كان البرامكة قد نكبوا على يد هارون نفسه.

ولسوف يدرك كل باغ بغيه ... المرء ينسى والزمان يؤرخ

بمدة يسيرة مستترة"، ومن المعلوم أن المدة اليسيرة لا تصل إلى اثني عشر عاماً !!.

زرارة بن أعين الشيباني

توفي سنة ١٥٠ هـ

عمره ٧٠ سنة

«اجتمعت العصابة على تصديق هؤلاء الأولين من أصحاب أبي جعفر وأبي عبد الله (عليه السلام) وانقادوا لهم بالفقه فقالوا أفقه الأولين ستة: زرارة ومعروف بن خربوذ وبريد، وأبو بصير الأسدي، والفضيل بن يسار، ومحمد بن مسلم الطائفي.. وأفقه الستة زرارة».

أبو عمرو الكشي

كان الناس يفسحون الطريق ويقفون على جانبيه احتراماً وإعجاباً، والقادم من بعيد قاصداً الصلاة رجل معروف، يذكرك بسيماء الأنبياء، لقد كان وسيماً، جسيماً، أبيض بين عينيه سجادة، وعلى رأسه برنس أسود، فيزيده جمالاً وهيبة، وفي يده عصا.

إنه شيخ الشيعة ورأسهم، وصاحب الإمام الصادق المقرب زرارة بن أعين الشيباني بالولاء، وإلاّ فإن أصله روميّ..

بدأ حياته متتلمذاً على يد الحَكم بن عيينة، وهذا وإن كان سمع بعض أحاديث الإمام الباقر والإمام الصادق □ في مدرسته وسمع بعض حديثه إلا أنه لم يكن مهيئاً

لدرجة صحبة الإمام والتأثر به..

كان الحكم وأمثاله ممن لم يستقوا علمهم من مدرسة أهل البيت(عليهم السلام) المرتبطة بالوحي الإلهي عبر الرسول (ص) تجسيداً للقول الشهير «حفظت شيئا وغابت عنك أشياء».

لذلك لم يستطع الشاب المتعلم زرارة أن يستمر مع الحكم، فقد وهبه الله فكراً عقولاً، وقدرة نقدية تحقيقية، وكان يرى أن مباني الحكَم وآراءه لا تصمد أمام النقاش ساعة. فتركه، واتجه نحو المنبع الصافي المتمثل في أهل البيت (عليهم السلام). فلازم منذ حداثة سنه الإمام محمد بن علي الباقر، وسمع حديثه، حتى أصبح من خلّص أصحابه الذين يطلب عندهم علم أهل البيت..

أهّله هذا الموضع من الإمام الباقر وذلك العلم الذي أخذه عنه أكثر من (١٤) عاماً، إلى المقدار الذي يقول عنه الإمام الصادق: لولا زرارة لظننت أن أحاديث أبي ستذهب.. لقد وهب حافظة عجيبة وإضافة إلى ذلك، عاقلة متميزة، ولذلك أصبح في وقته شيخ الشيعة في الكلام، وكان خصماً جدلاً لا يقوم أحد لحجته، وكان صاحب إلزام. ولوصوله إلى ذلك المستوى المتقدم فقد اختصه الإمام الصادق (عليه السلام) وكان سبّاقا في مجالي الفقه والكلام.

ها هو يجلس للتدريس، حتى تخرج على يديه عدد كبير من أصحاب الأئمة فلقد (كان المتكلمون من تلاميذه). وقد تخرج على يديه من أصبح - فيما بعد - من علماء الشيعة، فنحن نجد أن محمد ابن أبي عمير وهو من

كبار فقهاء أصحاب الإمام الكاظم (عليه السلام) يقول لجميل بن دراج ـ معلمه ـ: ـ ما أحسن محضرك، وأزين مجلسك!! فقال جميل:

ـ إي والله ما كنا حول زرارة بن أعين إلاّ بمنزلة الصبيان في الكتاب حول المعلم[1].

ولثقة الإمام الصادق في إدراكه لفكر أهل البيت فقد جعله ميزاناً، ومقياساً للشيعة حين اختلافهم، وأرشد إليه فقد دخل الفيض بن المختار على الإمام الصادق سائلاً إياه عن آية من القرآن، وبعد أن أجابه الإمام سأله الفيض:

ـ جعلني الله فداك ما هذا الاختلاف الذي بين شيعتكم؟!.

ـ وأي اختلاف يا فيض؟! سأله الإمام. فقال الفيض:

ـ إني لأجلس في حِلقهم (جمع حلقة) بالكوفة فأكاد أشك في اختلافهم فبم حديثهم حتى أرجع إلى المفضل بن عمر فيوقفني من ذلك على ما تستريح إليه نفسي، ويطمئن إليه قلبي..

ـ أجل هو كما ذكرت يا فيض إن الناس أولعوا بالكذب علينا كأن الله افترض عليهم لا يريد منهم غيره، وإني أحدث أحدهم بالحديث فلا يخرج من عندي حتى يتأوله على غير تأويله وذلك أنهم لا يطلبون بحديثنا وبحبنا ما عند الله وإنما يطلبون الدنيا، وكل يحب أن يدعى رأساً، أنه ليس عبد يرفع نفسه إلاّ وضعه الله وما

---

(1) اختيار معرفة الرجال ص ١٣٤.

من عبد وضع نفسه إلاّ رفعه الله فإذا أردت حديثنا فعليك بهذا الجالس[1].

و أومأ الإمام إلى زرارة بن أعين، والملاحظ هنا أن الإمام(عليه السلام) أعطى له تزكية شاملة، فهو لا يريد الدنيا، ولا يطلب بحديثهم وبحبهم إلاّ ما عند الله، وهو إضافة إلى ذلك قد وضع نفسه وهو عارف بتأويل الأحاديث ومعانيها.

ونظرا لموقعه المتميز هذا بين أتباع أهل البيت فقد حاول زيد بن علي بن الحسين، الثائر العلوي أن يضمه إلى صفوف أنصاره، ولما كانت نظرية الثورة لدى الإمام الصادق (عليه السلام) تختلف عنها لدى زيد: لذلك لم يشارك كبار صحابة الإمام فيها، وإن لم يكونوا ضدها في نفس الوقت، فقد جاء زيد الشهيد إلى زرارة. وسأله:

ـ ما تقول يا فتى في رجل من آل محمد استنصرك؟! فقال زرارة:

ـ إن كان مفروض الطاعة نصرته وإن كان غير مفروض الطاعة فلي أن أفعل ولي أن لا أفعل[2].

وأعجب الإمام الصادق بإجابة زرارة.

وبلغت منزلة زرارة وعدد من إخوانه أن الإمام الصادق(عليه السلام) كان يراهم الممثلين الحقيقيين

---

(1)تنقيح المقال ١.

(2)تنقيح المقال ١/ ٤٤٠.

لأفكاره في مختلف الميادين بحيث أن من يهزمهم ـ فكرياً ـ فكأنما هزم الإمام، ولعل هذا يبين لنا المنزلة السامية التي وصلوا إليها، فقد ورد رجل من أهل الشام على الإمام فاستأذن، فأذن له، فلما دخل سلم فأمره أبو عبد الله بالجلوس ثم قال: حاجتك أيها الرجل؟!.

قال: بلغني أنك عالم بكل ما تسأل عنه فصرت إليك لأناظرك!.

فقال الإمام: في ماذا؟

قال الشامي: في القرآن وصله وقطعه وإسكانه وخفضه ونصبه ورفعه.

فقال الإمام (عليه السلام): يا حمران (أخ زرارة) دونك الرجل.

قال الشامي: إنما أريدك أنت لا حمران.

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): إن غلبت حمران فقد غلبتني. فأقبل الشامي يسأل حمران، وحمران يجيبه حتى مل الشامي من السؤال.

فقال أبو عبد الله (عليه السلام) كيف رأيت يا شامي؟!.

قال: رأيته حاذقاً ما سألته عن شيء إلا أجابني فيه.. فقال الإمام:

يا حمران سل الشامي. وأقبل حمران يسأله فما ترك له مفراً ولا مهرباً. فقال الشامي: أريد يا أبا عبد الله أن أناظرك في العربية. فالتفت الإمام وقال:

ـ يا أبان بن تغلب ناظره، فناظره فما ترك الشامي

يكشر (يبتسم).

فقال أريد أن أناظرك في الفقه فقال أبو عبد الله: يا زرارة ناظره، فناظره فما ترك الشامي يكشر، قال: أريد أن أناظرك في الكلام فقال: يا مؤمن الطاق ناظره، فناظره فسجل الكلام بينهما، ثم تكلم مؤمن الطاق بكلامه فغلبه به، فقال: أريد أن أناظرك في الاستطاعة فقال للطيار: كلمه فيها، فكلمه فما تركه يكشر، ثم قال: أريد أن أكلمك في التوحيد فقال لهشام بن سالم: كلمه فيها، فسجل الكلام بينهما ثم خصمه هشام فقال: أريد أن أتكلم في الإمامة فقال لهشام بن الحكم كلمه يا أبا الحكم، فكلمه فما تركه يريم لا يحلي ولا يمير.

فبقي أبو عبد الله يضحك حتى بدت نواجذه. فقال الشامي: كأنك أردت أن تخبرني أن في شيعتك مثل هؤلاء الرجال؟!.

وأجابه الإمام: هو ذاك.. ثم بدأ يقيم طريقة النقاش والمناظرة بين الشامي وكل واحد من أصحابه.

وظل زرارة يصعد بين أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) صعوداً صاروخياً. وبالرغم من أن قسماً من أيام الإمام كانت أيام انفتاح نسبي إلا أنها كانت تخفي الشر المستطير، إذ ما لبث المنصور العباسي أن قلب ظهر المجن وبدأ يفتك بأتباع الأئمة أي فتك، لذلك كانت المصلحة تقتضي إخفاء العلاقة الوطيدة بين الإمام وبين زرارة بل وإشاعة نظرة مخالفة لما عليه زرارة من موقع الاحترام والتقدير بالنسبة للإمام.. ومن الواضح أن أمر المحافظة على حياة مثل هذا العالم الكبير، و«خزينة

أحاديث الأئمة"، أهم من سائر الاعتبارات الشخصية والاجتماعية، لذلك أشاع الإمام الصادق عيب زرارة، وربما وصل الأمر إلى لعنه والتهجم عليه، كما يفهم من عدد من الأحاديث.

تلقت الأوساط الموالية والمخلصة هذه الأحاديث اللاعنة بكثير من القلق، ذلك أن غضب الإمام يعني خروج الشخص (المغضوب عليه) عن جادة الاستقامة، والحال أن زرارة هو زرارة لم يتغير!!.

وكان أول الذين فوجئوا بهذه الأخبار، زرارة نفسه، فبالرغم من تكذيبه إياها للمرة الأولى لمعرفته بوجود أشخاص لا يتقنون غير فن الكذب على الأئمة، إلا أن «تواتر»، هذه الأخبار من مصادر متعددة، جعلت القلق يسيطر عليه، لذلك قام بإرسال ابنه عبد الله إلى الإمام الصادق للاستفسار منه عن صحة ما ينقل عنه، وتفسير ذلك إن كان صحيحاً. وجاء عبد الله للإمام، وحمل الرسالة الشفهية التالية لأبيه من الإمام:

«اقرأ على والدك مني السلام وقل له إني إنما أعيبك دفاعاً مني عنك فإن الناس والعدو يسارعون إلى كل من قربناه وحمدنا مكانه لإدخال الأذى فيمن نحبه ونقربه ويذمونه لمحبتنا له وقربه ودنوه منا ويرون إدخال الأذى عليه وقتله ويحمدون كل من عبناه وإنما أعيبك ليحمدوا أمرك في الدين بعيبك ونقصك ونكون بذلك دافع شرهم عنك يقول الله {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً}.«والله ما عابها إلا لكي تسلم من الملك ولا تعطب على يديه ولقد كانت صالحة ليس للعيب فيها مساغ والحمد لله فافهم المثل يرحمك الله فإنك والله أحب الناس إليّ وأحب أصحاب أبي حياً وميتاً. فإنك أفضل سفن ذلك البحر القمقام الزاخر وإن من ورائك ملكاً ظلوماً غصوباً يرقب عبور كل سفينة صالحة ترد من بحر الهدى ليأخذها غصباً ثم يغصبها وأهلها. فرحمة الله عليك حياً ميتاً

ورحمته ورضوانه عليك ميتاً»[1].

تلقت جماعة أخرى هذه الأحاديث الذامة لزرارة بعين الرضا، وتحقيق المصلحة، فمن جهة لم يكن يروقهم هذا الصعود المستمر لزرارة في أصحاب الإمام (عليه السلام)، وقلّ أن يخلو رجل جليل وصاحب شخصية من حساد، وأعداء فكانوا ينقلون هذه الأخبار من دون نقل تفسيرها، بل وكانوا يصطنعون أحاديث ينسبونها للإمام الصادق (عليه السلام)، وفي المقابل ينسبون لزرارة أقوالاً في العقائد والفقه لم يقل بها، ويسألون الإمام عنها، فينفي الإمام صحة هذه الأقوال، ويستفيدون من هذا النفي في تحطيم شخصية زرارة.

ومن الواضح أن هؤلاء يمارسون دوراً خبيثاً في إسقاط الشخصيات المهمة والقيادية في التجمع، خطر هذا الدور يتبين في الأثر النفسي الذي يحصل عند الأتباع، في فقدانهم للثقة المطلوبة في العلاقة بين القائد وجمهوره، ذلك أنهم يبدؤون بالتشكيك في كل شيء، فإذا كان زرارة وهو في تلك المرتبة، قد تبين فيما بعد أنه شخص غير مستقيم العقيدة، فمن يضمن لنا أن هؤلاء الموجودين خير منه؟!.

ولعلّنا نلحظ كثافة الجهد الذي بذله المنحرفون عن أهل البيت(عليهم السلام) في اتجاه إسقاط الشخصيات المعتمدة لدى الإمام(عليه السلام).

---

(1) تنقيح المقال ١/ ٤٣٩ .

فقد دخل جميل بن دراج وهو أحد تلاميذ زرارة على الإمام الصادق (عليه السلام)، يقول فاستقبلني رجل خارج من عند أبي عبد الله من أهل الكوفة فلما دخلت على أبي عبد الله قال: لقيت الرجل الخارج من عندي؟! قلت: بلى.

قال: لا قدس الله روحه ولا قدس مثله إنه ذكر أقواماً كان أبي ائتمنهم على حلال الله وحرامه وكانوا عيبة علمه وكذلك هم اليوم عندي، هم مستودع سري، أصحاب أبي حقاً إذا أراد الله بأهل الأرض سوءاً صرف بهم السوء، هم نجوم شيعتي أحياءً وأمواتاً، يحيون ذكر أبي، بهم يكشف الله كل بدعة، ينفون عن هذا الدين انتحال المبطلين وتأول الغالين.. ثم بكى.

فقلت من هم؟!.

فقال: من عليهم صلوات الله ورحمته أحياءً وأمواتاً بريد العجلي وزرارة وأبو بصير ومحمد بن مسلم.

وهكذا عانى زرارة كسائر العظماء والنوابغ من دعايات الجهلة، وبالرغم من كون هذا الأمر صعب الاحتمال لدى الكثيرين إلا أنه لا يضر المرء، ذلك ما لم ينحرف عن الخط المستقيم. وكما قال الإمام الصادق (عليه السلام):

«وأنا والله راض عنك فما تبالي ما قال الناس بعد هذا».

جابر بن حيان الكوفي

توفي بعد سنة ١٨٨ هـ مختفياً

كان جابر ينتقل في البلدان لا يستقر به بلد خوفا من السلطان..

ابن النديم

جابر.. أحد التجليات لعلم أهل البيت (عليهم السلام) المحيط الشامل، الذي يستمد كل ذلك من مصدر الوحي الإلهي..

لم يستوعب معاصروه ولا المتأخرون إمكانية أن يأتي رجل من المسلمين فيؤلف ثلاثة آلاف وتسعمائة كتاب!! في مختلف الفنون، خصوصاً أولئك الذين لا يروقهم أن يشار ببنان الإعجاب والتقدير إلى نابغة من نوابغ أهل البيت(عليهم السلام) وأتباعهم، لذلك أنكر بعضهم وجوده!! وكأن الشمس تغطى بغربال!.

الذين حاولوا تفسير هذه الظاهرة - الأعجوبة، عجزوا، إذ أن بالإمكان أن يكون فرد ما مؤسساً لعلم (كالكيمياء)، ولكن أن يقوم بكتابة هذا العدد الضخم من الكتب والرسائل في مختلف الفنون والعلوم، وفي كل جانب لا يقل إبداعه عن الآخر!! فكما يكتب في الطب بجدارة، يكتب في الفلسفة بتفوّق ويرد في خمسمائة كتاب على نظريات الفلاسفة، وهكذا يكتب في الأخلاق والوعظ كما يكتب في الكيمياء وخواص المواد.

ولكن العجب يزول عندما ننفذ إلى واقع هذا التلميذ الأمين والواعي لعلم النبوة والإمامة ذلك العلم المحيط، والشامل، الذي لا حد له لأنه يتصل ببحر علم الله سبحانه

وتعالى.

ذلك أن العلم، والبشر مهما بلغ من الدقة، فإنه لا يكتشف إلا ظواهر الأشياء وعلاقاتها ولا بد من الرجوع آخر الأمر إلى ما يحكم به العيان العقلي لنهتدي به سواء السبيل، وهذا العيان العقلي لا يكون لك ولي من أفراد الناس بل يكون بادئ ذي بدء وحياً يوحى به إلى نبي ثم يتوارث وبغير هذا السند نظل نتخبط أين يكون الحق وأين يكون الباطل، فالشكوك لا تنجاب في رأي جابر «إلاّ بالعيان وإقامة البرهان، وإقامة البرهان لا تكون إلا بالعيان والعيان من أفعال الأنبياء»[١].

يقول جابر مفسراً تلك الظاهرة بأنه لم يقم بشيء سوى تأليف هذه الكتب وتجميعها، وأن هذا العلم إنما كان من الإمام الصادق (عليه السلام) عن آبائه: «تأخذ من كتبي علم النبي وعلي وسيدي - أي الصادق - وما بينهم من الأولاد منقولاً نقلاً من كان وهو كائن وما يكون من بعد إلى أن تقوم الساعة». ويقول في موضع آخر: «فو الله ما لي في هذه الكتب إلا تأليفها والباقي علم النبي»[٢].

تعجب الدكتور زكي محمود أن يستكثر بعض المسلمين على الأمة أن يكون لديها نابغة مثل جابر بن حيان، والحقيقة أن انتماء جابر الواضح لأهل البيت(عليهم السلام)، وعدم إمكانية إنكار هذا الانتماء، كما حصل

([1]) / جابر بن حيان ٨٢/ د. زكي نجيب محمود.

([2])المصدر ص ٤٧ عن كتاب جابر (الخواص الكبير).

لغيره من النوابغ، إذ أنه يشير في كتبه إلى «سيدي جعفر بن محمد صلوات الله عليه».

فلما لم يكن ذلك ممكناً، استكثر بعض هؤلاء أن يكون نوابغ الفكر، وعمالقة العلم ـ عادة ـ من أتباع أهل البيت(عليهم السلام).

ولما كان إلغاء شخص بهذه الشهرة من التاريخ ضرباً من العبث واللغو، بعد أن غطت أخباره صفحات المؤلفين، ومعاجم الرجال، واحتلت نسخ كتبه مساحة واسعة في مكتبات العالم، بل أصبح يضرب بشهرته في تأسيس الكيمياء المثل، تنازل هؤلاء عن إلغاء الشخص لصالح إلغاء الشخصية، فقالوا إنه موجود ولكن هذه الكتب المعروفة باسمه، ليست له، وإنما لمؤلف غيره ولنقرأ ما كتبه ابن النديم في رده على هذا الكلام:

«تقول عنه جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين أن هذا الرجل لا أصل له ولا حقيقة، وبعضهم قال أنه ما صنف ـ إن كان له حقيقة ـ إلاّ كتاب الرحمة وأن هذه المصنفات صنفها الناس ونحلوها إياه.

وأنا أقول: إن رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب فيصنف كتاباً يحتوي على ألفي ورقة، يتعب قريحته وفكره بإخراجه ويتعب يده وجسمه بنسخه ثم ينحله لغيره إما موجوداً أو معدوماً ضرب من الجهل وأن ذلك لا يستمر على أحد ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم وأي فائدة في هذا وأي عائدة؟! والرجل له حقيقة وأمره أظهر وأشهر وتصانيفه أعظم وأكثر وهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة وأنا أوردها في مواضعها وكتب في معاني

شتى من العلوم قد ذكرتها في مواضعها من الكتاب»[1].

لقد كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يتأسف ألا يجد حملة مناسبين لعلمه ومعرفته في زمنه فكان يقول: «إن ها هنا لعلماً جمّاً لو أصبت له حملة..».

وتهيأ أيام الإمام الصادق (عليه السلام) أن يكون من أصحابه من له قابلية حمل بعض جوانب هذا العلم، فكان هشام الكلام، وزرارة الفقه وجابر الكيمياء.. وقد أمر هؤلاء كلهم أن لا يتحدثوا إلا بمقدار لأن عقول الناس لا تحتمل، والظروف غير مناسبة لكشف كل المسائل، وما وصلنا عبر هؤلاء الرجال مع ملاحظة هذا الجانب لم يكن إلا قطرة من محيط علم الأئمة(عليهم السلام) ويعبر عن هذا المعنى جابر بقوله:

«ولولا أنني أمرت أن أعطي الناس بقدر استحقاقهم لكشفت من نور الحكمة ما يكون معه الشفاء الأقصى ولكني أمرت بذلك لما فيه من الحكمة لأن العلم لا يحمله الإنسان إلاّ على قدر طاقته وإلاّ أحرقه كما لا يقدر الإناء والحيوان أن يحمل إلا بقدّر طاقته وملئه وإلاّ فاض ورجع بالذل والعجز». ونستطيع أيضاً أن نعرف أي مقدار من العلم كان الإمام الصادق قد أطلع عليه جابراً، مع ملاحظة احتياطه في نقل العلم وكشفه للعموم من جهة، وهذا العدد الكبير من المؤلفات، فلو لم يكن يلاحظ إخفاء قسم من العلم والتكتم عليه كما أمر بذلك، لكنا أمام عدد أكبر من

---

(1)أعيان الشيعة ٧/ عن فهرست ابن النديم. .

المؤلفات. ونورد قسماً من أسماء مؤلفاته، ويلاحظ فيها التنوع الكبير في العلوم من كيمياء إلى منطق إلى طبقات الأرض إلى الفلسفة والطب.. هذا مع العلم أن القسم الأعظم من كتبه مفقودة.

ا ـ كتاب البدوح وهي مجموعة أحرف (ب، د، و، ح) وهو طلسم يفيد السرعة والإنجاز.

٢ ـ كتاب الشمس أي كتاب الذهب.

٣ ـ كتاب القمر أي كتاب الفضة.

٤ ـ كتاب الأرض (أولى، وثانية وثالثة ورابعة، وخامسة وسادسة وسابعة).

٥ ـ كتاب الحيوان.

٦ ـ كتاب الأحجار.

٧ ـ كتاب الزئبق.

٨ ـ كتاب خواص إكسير الذهب.

٩ ـ كتاب الوصية.

١٠ ـ كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل.

١١ ـ كتاب الموازين.

١٢ ـ كتاب مصححات سقراط.

١٣ ـ كتاب مصححات أفلاطون.

١٤ ـ كتاب ما بعد الطبيعة.

١٥ ـ كتاب المجردات.

١٦ ـ كتاب التراكيب.

١٧ ـ كتاب الأسرار.
١٨ ـ كتاب الباهر.
١٩ ـ كتاب الخالص.
٢٠ ـ كتاب النور.
٢١ ـ كتاب التدابير.
٢٢ ـ كتاب الواحد الكبير.
٢٣ ـ كتاب الواحد الصغير.
٢٤ ـ كتاب الملاغم الجوانية.
٢٥ ـ كتاب الملاغم البرانية.
٢٦ ـ كتاب الإمامة.
٢٧ ـ كتاب الاستتمام.
٢٨ ـ كتاب الرحمة.
٢٩ ـ الأسطقس الأول والثاني.
٣٠ ـ كتاب البيان.
٣١ ـ كشف الأسرار وهتك الأستار.
٣٢ ـ كتاب رسائل جعفر الصادق (عليه السلام).
٣٣ ـ الجامع في الأصطرلاب.
٣٤ ـ كتاب السموم.

ويتحدث جابر عن تأليفاته قائلاً: ألفت ثلاثمائة كتاباً في الفلسفة و ألفاً وثلاثمائة رسالة في صنائع مجموعة وآلات الحرب، ثم ألفت في الطب كتاباً عظيماً، ثم ألفت كتباً صغاراً وكباراً وألفت كتب المنطق على رأي

أرسطاليس، ثم ألفت كتاب الزيج اللطيف نحو ثلاثمائة ورقة ثم ألفت كتاباً في الزهد والمواعظ، وألفت كتبا في العزائم كثيرة..».

ولقد كان «جابر وهو تلميذ جعفر الصادق وصديقه، وقد وجد في إمامه الفذ سنداً ومعيناً ورائداً أميناً وموجهاً لا يستغني عنه وقد حاول جابر أن يحرر الكيمياء بإرشاد أستاذه من أساطير الأولين التي علقت بها من الإسكندرية فنجح في هذا السبيل إلى حد بعيد من أجل ذلك يجب أن يقرن اسم جابر مع أساطين هذا الفن في العالم أمثال بويله وبريستله ولافوازيه، وغيرهم من الأعلام»[1] كما يقول هولميارد.

وإذا كان للأمة نوابغ في مستوى جابر بن حيان، فقد كان فيها فراعنة في مستوى هارون الرشيد، الذي جرد سيفه بغيه، وعدوانه متتبعاً أصحاب أهل البيت، ونوابغ الأمة، فتراهم بين مشرد، وسجين وشهيد، وهكذا طورد جابر، وطلب لهارون، ففر بدينه حاملاً معه علمه لكي يختفي في الكوفة مدة طويلة، حتى وافاه الأجل خائفاً مطلوباً بعد سنة ١٨٨هـ.

---

[1] / فلاسفة الشيعة/ ٢١٩.

السيد اسماعيل بن محمد الحميري

١٠٥ ـ ١٧٨ هـ

«أنت سيد الشعراء»

الإمام الصادق (عليه السلام)

«إذا أراد الله بعبد خيرا لم يمت حتى يعرّفه هذا الأمر».

هكذا افتتح السيد الحميري الشاعر حديثه مع جمع من أصحابه، عندما سألوه عن كيفية هداية الله له حتى أصبح شاعر أهل البيت غير المنازع في حينه؟! خصوصاً وأنه نشأ في بيئة لم تتقن شيئاً كما أتقنت النصب والعداء لأهل البيت (عليهم السلام) وخصوصاً لأمير المؤمنين (عليه السلام)، إذ كان والده أباضيين يدينان بمذهب الخوارج المعادين لأمير المؤمنين.

وبالفعل فقد كان من المقدر لولا عناية الله أن يكون السيد في صحراء التيه والعداوة لأمير المؤمنين، فلنستمع إليه يتحدث عن تلك الرحلة المذهلة من الضياع التام إلى الهداية النسبية إلى الهداية المطلقة، من الأباضية إلى الكيسانية إلى مذهب أهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله).

ابتسم في الوقت الذي علت سحابة همٍّ على وجهه،

بدأت تلك الابتسامة، كان يودّ لو أن والديه أدركتهما هداية الله ولم يموتا على تلك العقيدة الفاسدة، ومرت بذهنه تلك الأيام العجاف، وانطلق يتحدث:

«كنت وأنا صبي أسمع أبوي يسبان أمير المؤمنين (عليه السلام) فأخرج عنهما وأبقى جائعاً وأوثر ذلك على الرجوع إليهما، فأبيت في المساجد جائعاً لحبي فراقهما وبغضي إياهما حتى إذا أجهدني الجوع رجعت، فأكلت ثم خرجت فلما كبرت قليلاً وعقلت وبدأت أقول الشعر، قلت لأبوي: إن لي عليكما حقاً، يصغر عند حقكما عليّ فجنّباني إذا حضرتكما ذكر أمير المؤمنين (عليه السلام) بسوء، فإن ذلك يزعجني وأكره عقوقكما بمقابلتكما».

كان هذا الحل مناسباً، إذ أنه يحفظ حرمة أبويه فلا يهجرهما ولا يعقهما من جهة ولا يضطر إلى مقابلتهما، ومواجهتهما في الحديث عندما يبدأن بسبّ أمير المؤمنين من جهة أخرى إلاّ أنهما استمرا على طريقتهما وأسلوبهما، إلى الحد الذي كانت أمه تستيقظ نصف الليل لكي تؤدي وِردها في شتم الإمام علي (عليه السلام) ولا تنسى أن توقظ ابنهما لكي تحذره من الاستمرار في هذا الطريق قائلة:

ـ إني أخاف أن تموت على مذهبك فتدخل النار فقد لهجت بعلي وولده فلا دنيا ولا آخرة ولقد نغصت علي مطعمي ومشربي!!.

وكما استمر والداه على طريقهما في معاداة أمير المؤمنين فقد (فاضت على السيد الرحمة فاستنقذته) وكان يرى أن لا قوة في العالم تستطيع أن تحرّك قيد أنملة من

ولائة وهل يعود إلى الجاهلية من رأى النور؟! {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ }.

ها هو يخاطب أمه:

فقلـت: دعينــي لـن أحبِّـر مدحـة

لغيـــرهم مـــا حـــج لله أركـــب

أتنهيننــي عـن حـب آل محمـد؟!

وحـــبّهم ممـــا بـــه أتقـــرب

وحـبهم مثـل الـصلاة وأنـه علـى

النـاس مـن بعـد الـصلاة لأوجـب[1]

وتوعداه بالقتل.. هل تتصور أن أمّاً تقتل ابنها؟! أو أن أباً يشحذ السكين ليختم بها حياة ولده لحبّ هذا الولد لأمير المؤمنين؟! نعم.. يقول السيد:

«فتواعـداني بالقتـل، فأتيـت للأميـر عقبـة بـن مـسلم فأخبرته خبري فقال لـي: لا تقربهما وأعدّ لـي منزلاً أمر لـي فيـه بمـا أحتـاج إليـه وأجـرى علـيّ جرايـة تفضل علـى مؤونتـي».

وهكـذا انفـصل عـن والديـه مـسكناً ومعيـشة بعـد أن انفصل عليهما مذهباً وعقيدة. وانطلق يبحث عن ضالته في دنيا العقائد.. لقد أحب أهل البيت وأترعت نفسه إعجاباً

---

[1] / الغدير ٢/ ٢٣٢.

بشخصية أمير المؤمنين، إذ وجده قرآناً ناطقاً ومعجزة متحركة، وتجلياً أعظم لتربية الرسول (صلى الله عليه وآله)، فوقف شعره عليه فأرخ فضائل أمير المؤمنين (عليه السلام) شعراً.

ولهذا العمل أهمية كبرى ذلك أنه جاء بعد سنوات من الحكم الأموي الذي كان فيه نقل فضائل أمير المؤمنين ممنوعاً أشد المنع وكان الراوي لتلك الفضائل يعرض للعقوبة، حتى وإن كانت تلك الفضائل في شرح وتفسير آيات القران الكريم، فمن جهة كان السيد يؤرخ تلك الفضائل، ومن جهة أخرى فإن كون ذلك التاريخ بالشعر يعطيه ميزة خاصة ذلك أن الشعر أسهل تناولاً لدى العرب في ذلك الوقت لحفظه..

وقد كان يستعلم من فضائل الإمام من حفاظ الأحاديث والتابعين ويتتبع المجهول منها حتى يسلّط عليه أنوار شعره ليحفظه الناس إلى الحدّ الذي كان (يتحدى)، أن يوقفه بعضهم على فضيلة غير مذكورة في شعره من فضائل الإمام.

كان السيد يأتي الأعمش سليمان بن مهران الكوفي فيكتب عنه فضائل علي أمير المؤمنين ويخرج من عنده ويقول في تلك المعاني شعراً فخرج ذات يوم من عند بعض أعيان الكوفة وقد حمله على فرس وخلع عليه فوقف بالكناسة، ثم قال: يا معشر الكوفيين؟ من جاءني منكم بفضيلة لعلي بن أبي طالب لم أقل فيها شعراً أعطيته فرسي هذا وما علي، فجعلوا يحدثونه وينشدهم حتى أتاه رجل منهم وقال: إن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب

(عليه السلام) عزم على الركوب فلبس ثيابه وأراد الخف فلبس أحد خفيه ثم أهوى إلى آخر ليأخذه فانقض عقاب من السماء فحلق به ثم ألقاه فسقط منه أسود (ثعبان) وانساب فدخل حجراً فلبس عليّ (عليه السلام) الخف.. ولم يكن قد قال في ذلك شيئاً ففكر هنيهة ثم قال:

ألا يا قوم للعجب العجاب لخف أبي الحسين وللحباب

أتى خفّاً له وانساب فيه لينهش رجله منه بناب

فخرّ من السماء له عقاب من العقبان أو شبه العقاب

فطار به فحلق ثم أهوى به للأرض من دون السحاب

ودوفع عن أبي حسن علي نقيع سمامه بعد انسياب

ثم حرّك فرسه وثناها وأعطى كل ما كان معه من المال والفرس للذي روى له الخبر وقال: إني لم كن قلت في هذا شيئاً[1].

ولأنه رأى الظلم قد مدّ بساطه الأسود على المجتمع في صورة ضحايا وشهداء وأرامل ويتامى، فقد كان يرتقب الفجر، ويأمل في تحول هذه الأوضاع وتغيرها، إلى مجتمع العدالة والحرية والرفاه، وحيث كان من الكوفيين من يعتقد في إمامة محمد بن الحنفية بعد أخويه الحسن والحسين، وأنه ـ أي محمد ـ لم يمت، وإنما ينتظر

([1]) / الغدير ٢/ ٢٤٢.

لإعلان الثورة على الفساد وإقامة العدل والحق، خصوصاً لكونه من بني هاشم ولمطابقة اسمه لاسم النبي (صلى الله عليه وآله). وكان على هذه العقيدة طائفة سميت فيما بعد بالكيسانية.

ولشعور السيد المرهف وإحساسه بوقع الظلم، وأمله في تغيير هذا الواقع فقد لقيت هذه العقيدة في قلبه الثائر مجالاً لكي تستقر فيه، وهكذا اعتنق الكيسانية باعتبارها أملاً ثورياً ومذهب معارضة وإعلان ولاء لأمير المؤمنين من خلال ابنه محمد، وفي هذا الصعيد فقد أثر عنه قصائد تبشر بظهور محمد بن الحنفية من مخبئه في جبال رضوى ليقيم دولته وعدالته. إلاّ أن لقاء السيد بالإمام الصادق (عليه السلام) أصلح اتجاه بوصلة تفكيره، ومرة أخرى لنعد للسيد متحدثاً عن هذه الهداية:

«كنت أقول بالغلو وأعتقد غيبة محمد بن علي الملقب بابن الحنفية، قد ضللت في ذلك زماناً فمن الله عليّ بالصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) وأنقذني به من النار وهداني إلى سواء الصراط فسألته بعد ما صح عندي بالدلائل التي شاهدتها منه أنه حجة الله عليّ وعلى جميع أهل زمانه فإنه الإمام الذي فرض الله طاعته وأوجب الاقتداء به فقلت له: يا ابن رسول الله قد روي لنا أخبار عن آبائك (عليه السلام) في الغيبة وصحة كونها فأخبروني بمن تقع؟! فقال: إن الغيبة ستقع بالسادس من ولدي وهو الثاني عشر من الأئمة الهداة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وآخرهم القائم بالحق بقية الله في الأرض وصاحب

الزمان، والله لو بقي في غيبته ما بقي نوح في قومه لم يخرج من الدنيا حتى يظهر فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً..

قال السيد: فما سمعت ذلك من مولاي الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) تبت إلى الله تعالى ذكره على يديه وقلت قصيدتي:

ولمـا رأيـت النـاس فـي الـدين قـد غــــــــــــــــــــووا

تجعفـــرت باســـم الله فـــيمن تجعفـــــــــــــــــــروا

ونـاديـت باسـم الله والله أكبـر وأيقنت أن الله يعفو ويغفر

ودنـت بـدين غيـر مـا كنـت داينـــــــــــــــــــــاً بـــه ونهـــاني سـيد النـــاس جعفـــــــــــــــــــر

فقلـت: فهبنـــي قـد تهـودت برهـــــــــــــــــــة وإلاّ فـــديني ديـــن مـــن ينتـــــــــــــــــصر

وإنـي إلـى الـرحمن من ذاك تائـــــــــــــــــــب وإني قد أسلمت والله أكبر

ولست بغال ما حييت وراجع إلـى

مـا عليـه كنـت أخفـي وأضـمر

ولا قــائلاً حـــي برضــوى محمــد

وإن عاب جهال مقالي فـأكثروا

ولكنـــه ممـــا مـــضى لـــــــــــــــــسبيله علــى أفـضل الحـالات يقفـى ويخبـــــــــــــــــر

مع الطيبين الطـاهرين الأولـى لهم

مـــن المـــصطفى فـــرع زكـــي

وعنـــــــــــــصر[1]

وبـالرغم مـن معرفـة الـسيد بـأن الجـو العـام الحـاكم لا يرحـب بتمجيد أهل البيت (عليهم السلام) سـواء فـي ذلـك الحكومة العباسية أو سائر الشعراء وأهل الأدب، لما يعنـي ذلك من توجيه الناس إلى حقهم، وفي ذلك من الخطر علـى الحـاكمين مـا لا يخفـى، كذلك فـإن هـذا المنحـى فـي الـشعر كفيـل بإماتـة روايتـه والتغاضـي عنـه مـن قبـل الـرواة، ممـا يـضيع ـ حسب المقـاييس العاديـة ـ شـعر الـشاعر، مـع كـل ذلك فإن السيد قد وقف شعره علـى هـذا الجانـب، وأراد الله لشعره البقاء والخلود. لخلود محتوياته ومعانيه.

فقد روى التوزي قال:

رأى الأصـمعي[2] جـزءاً مـن شـعر الـسيد، فقـال لمـن هـذا؟! فـسترته عنـه لعلمـي بمـا عنـده فيـه فأقسم علـيّ أن أخبـره، فأخبرتـه فقـال: أنـشدني قـصيدة منـه، فأنـشدته. ثـم أخرى وهو يستزيدني ثم قال: قبحـه الله! مـا أسـلكه لطريـق الفحول لولا مذهبه ولولا ما في شعره لما قدمت عليه أحداً من طبقته!![3].

ولكـن.. هـل كـان الـسيد إسـماعيل ينتظـر التقـديم مـن الأصـــمعي، ممـــن يأكـــل فتـــات موائـــد الظلمـــة ويمـــسح

---

(1)كمال الدين وتمام النعمة ص ٢٠.

(2)الأصـمعي: معـروف بعداوتـه لأهـل البيـت عمومـا ولأميـر المؤمنين خصوصاً وقد حد أمير المؤمنين جده في السرقة.

(3)أعيان الشيعة ٣/ ٤٠٧.

أعتابهم؟! لقد انتخب طريقه وهو يعلم إلى أين ينتهي وهو القائل:

أيـــا رب إنـــي لـــم أرد بالـــذي بـــه

مـدحت علياً غيـر وجهك فـارحمِ

وينبغي أن يشار إلى أن السيد ـ وهو لقب أطلقه عليه الإمـام الـصادق (عليـه الـسلام) إذ قـال لـه: أنـت سـيد الشعراء، وإلا فإن اسمه (إسماعيل) ـ لم يكن شاعراً مجيداً فحسب بل كان عالماً قوي الحجة وسريع البديهة. ويكفي أن الكميت بن زيد الأسدي وهو أول من نظم جدال الشيعة وحججهم فـي الإمامـة بالـشعر مـن خـلال هاشمياته، يقول للسيد: أنت يا أبا هاشم أعلم منا وأفقه.

فقد حج السيد الحميري أيام هشام بن عبد الملك فلقي الكميت، فسلّم عليه وقال له: أنت القائل:

ولا أقـول إذا لـم يعطيـا فـــــــــــــــــدكاً بنت الرسول ولا ميراثه كفرا

الله يعلـم مـــاذا يأتيـــان بـــه

يوم القيامة من عذر إذا حضرا؟!

قال الكميت: نعم قلته تقية من بنـي أميـة وفـي مضمون قولي شهادة عليهما بأنهما أخذا ما كان في يدها.

فقال له السيد: لولا إقامة الحجة لوسعني السكوت، لقد ضعفت يا هذا عن الحق، يقول رسول الله (صلى الله عليه

وآلـه): «فاطمـة بـضعة منـي يريبنـي مـا رابهـا، وإن الله يغضب لغضبها ويرضى لرضاها». وإن رسول الله وهب لهـا فـدكاً بـأمر الله وشـهد لهـا أميـر المـؤمنين والحـسن والحسين وأم أيمن بـأن رسـول الله (صـلى الله عليـه وآلـه) أقطع فاطمة فدكاً فلم يحكما لها بذلك والله يقول: {يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ} ويقـول: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ }. وهم يجعلون مصير الخلافة إليهم: الصلاة وشهادة المرأة لأبيهـا: أن رسـول الله (صـلى الله عليـه وآلـه) قـال أمـروا فلاناً بالصلاة بالنـاس، فصدقت المرأة لأبيها، ولا تصدق فاطمة وعلي والحسن والحسين وأم أيمن فـي مثل فدك؟! وتطالب مثل فاطمة بالبينة على ما أدعت لأبيها، وتقول أنت مثل هذا؟!.. إلى آخر حواره مع الكميت..

وأبو هارون المكفوف الشاعر يقول لـه: أنت الرأس ونحن الأذناب.

فقد استطاع أن يجند العباسيين ـ بالرغم من أنه ضدهم ـ إلى صف الهاشميين ضد أعداء أهل البيت، ذلك أنـه كـان يمدح بني هاشم، فيعمهم بالمدح، وأحياناً يشير إلى العباس عـم النبـي وابنـه عبـد الله، مـع أن أعـداءه كـانوا يتهمونـه بالتشيع، وهـي تهمـة كانـت تكفـي أيـام المنـصور والرشيد لقتل المتهم. ولكنه لما كان عالماً من جهة وحسن الجدال وسريع البديهة من جهة أخرى فقد كان يتغلب على هذه العقبات. ولعل في قصته مع القاضي سوار ما يشير إلى علمه وحسن تصرفه، وكذلك مع عبد الله بن أباض زعيم الخوارج حيث انتهى به إلى السجن حتى مات.

فقد كـان قاضـي البـصرة سوّار بـن عبـد الله العنبـري

أباضياً خارجياً يعادي شيعة أهل البيت وبالطبع كان يعادي السيد الحميري لأجل ذلك، ولما رأى السيد ينشد عند المنصور، ويقرب أخذته الغيرة فقال للمنصور:

ـ هذا والله يا أمير المؤمنين يعطيك بلسانه ما ليس في قلبه. والله إن القوم الذين يدين بحبهم لغيركم وإنه لينطوي على عداوتكم.

فقال السيد: والله إنه لكاذب وإنني في مديحكم لصادق ولكنه حمله الحسد إذا رآك على هذه الحال، وأن انقطاعي ومودتي لكم أهل البيت لعرق فيها عن أبوي، وأن هذا وقومه لأعداؤكم في الجاهلية والإسلام، وقد أنزل الله عز وجل على نبيه عليه وآله السلام في أهل بيت هذا: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ}.

فقال المنصور: صدقت.

فقال سوار: يا أمير المؤمنين أنه يقول بالرجعة ويتناول الشيخين بالسب والوقيعة فيهما.

فقال السيد: أما قوله بأني أقول بالرجعة فإن قولي في ذلك على ما قال الله تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ} وقد قال الله في موضع آخر {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً} فعلمت أن ها هنا حشرين أحدهما عام والآخر خاص، وقال سبحانه {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ}.. إلى آخر مناظرته معه[1]. حيث أمر

---

[1] للتفصيل يراجع الغدير ٢/ ٢٥٨.

المنصور القاضي بالكف عن السيد وأخبره أنه لا حكومة له على السيد.

وفي مرة أخرى ولما بلغ السيد أن عبد الله بن أباض يعيب أمير المؤمنين (عليه السلام) وأنه يتهدد السيد الحميري بذكره عند المنصور بوجوب قتله، أرسل السيد إليه قصيدته الميمية:

لمن طلل كالوشم لم يتكلم ونؤي و آثار كترقيش معجم

في مدح الإمام (عليه السلام) فلما وصلت إلى ابن أباض امتعض منها جداً وأجلب في أصحابه وسعى به إلى الفقهاء والقراء فاجتمعوا وصاروا إلى المنصور وهو بدجلة البصرة فرفعوا قصته فأحضرهم وأحضر السيد فسألهم عن دعواهم.

فقالوا: إنه يشتم السلف ويقول بالرجعة ولا يرى لك ولا لأهلك إمامة.

فقال المنصور: دعوني أنا واقصدوا لما في أنفسكم.. وأقبل على السيد قائلاً: ما تقول فيما يقولون.

فقال السيد: ما أشتم أحداً وإني لأترحم على أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله). وهذا ابن أباض قل له يترحم على علي وعثمان وطلحة والزبير[1]. فتلوى وتثاقل ساعة فحذفه المنصور بعود كان بين يديه وأمر بحبسه فمات في الحبس وأمر بمن كان معه فضربوا بالمقارع وأمر للسيد بخمسة آلاف.

([1])يلحظ هنا ذكاء السيد حيث أن عقيدة الخوارج تكفير المذكورين.

وهكذا استمر السيد في حياته مدافعا عن أهل البيت(عليهم السلام) مادحاً أمير المؤمنين حيناً، وراثياً للحسين آخر حتى آذنت شمس عمره بالمغيب.

وكأنّ خاتمة عمره، كانت تؤرخ مسيرة حياته، منذ البداية، وحتى أصبح سيد شعراء أهل البيت(عليهم السلام).. فقد قال الحسين بن عون: دخلت على السيد الحميري عائداً في علّته التي مات فيها، فوجدته يُساق به، ووجدت عنده جماعة من جيرانه وكانوا عثمانية، وكان السيد جميل الصورة رحيب الجبهة عريض ما بين السالفتين، فبدت في وجهه نكتة سوداء مثل النقطة من المداد، ثم لم تزل تزيد وتنمى حتى طبقت وجهه (اسوداداً) فاغتم لذلك من حضره من الشيعة، وظهر من أولئك سرور وشماتة فلم يلبث إلا قليلاً حتى بدت في ذلك المكان من وجهه لمعة بيضاء فلم تزل تزيد وتنمى حتى أسفر وجهه وأشرق، وافترّ السيد ضاحكاً وأنشأ يقول:

كذب الزاعمون أن عليّاً ... لا ينجي محبّه من هنات

قد وربي دخلت جنة عدن ... وعفى لي الإله عن سيئاتي

فابشروا اليوم أولياء علي ... وتولّوا عليّ حتى الممات

ثم من بعده تولّوا بنيه ... واحداً بعد واحد في الصفات

وأضاف: أشهد أن لا إله إلا الله حقّاً حقّاً، وأشهد أن محمداً رسول الله حقّاً حقّاً وأشهد أن علياً أمير المؤمنين

حقاً حقاً.. أشهد أن لا إله إلاّ الله..
وسقطت شمس روحه في محيط الأبدية..

نساء حول الإمام الصادق (عليه السلام)

أم خالد:الثائرة المجهولة

سيدات المجتمع الراقي.. سيدات المجتمع المخملي، حسناوات الموضة..

تعبيرات مختلفة عن مجاميع عدمت الأهداف الكبرى في حياتها فراحت تبحث عن ذاتها ووجودها في غير المكان الصحيح.. مجاميع الناظرات إلى الأشياء لا الأهداف، ورؤية المقتنيات لا الشخصيات، وتقييم النفوس بمقدار ما تملك من النقود والفلوس. لا بمقدار ما تحسن من دور، وما تقوم به من خدمة وعمل.

مجتمعات حياتُها كلها تمثيل، وكلها أفلام، والعجيب أنهم لا يتركون ذلك، مع أن تمثيل فيلم لمدة ثلاث ساعات يكلف الممثل جهدا.. لكن هؤلاء مجملُ حياتهم تمثيل، مشاعرهم تمثيل ظاهري، منظرهم تمثيل، ترحيبهم تمثيل، حبهم، بغضهم، بكاؤهم وضحكهم، إيمانهم وكفرهم..كله تمثيل وأعجب من ذلك أنهم لا يتعبون من هذا التمثيل الدائم.. نعم عندما يخونهم الزمان، ويفقدون المال، عندها لا يستطيعون الاستمرار في لعب تلك الأدوار لحاجتها الدائمة للمال، فقد ينتبه بعضهم وينزل من خشبة التمثيل تلك، والبعض الآخر لا يحب أن يفارقها فيستمر حتى يسقط في دائرة الديون والإفلاس..

ها أنت ترى أنهم يُخدعون بأن الشخصية القوية هي

في العطر الفلاني، وأن الساعة الكذائية هي خيار الناجحين، وأن السيجارة الفلانية.. وإلى آخر هذه القائمة، فيعوضون النجاح الحقيقي في المجتمع بالنجاح الزائف في (التحلي بالمقتنيات وفي شراء الأشياء).. وأسوأ شيء يمكن أن يصاب به إنسان أن (تتشيأ) القيم عنده، فيظن أنه يستطيع الحصول على (صفات) النجاح والشخصية المحبوبة من خلال عطر، أو ساعة أو ثوب أو حذاء!!

سيدات المجتمع المخملي، تعبير عن مقدار من المال يملكه أشخاص لم يكونوا يستحقون هذا المال ولا يعرفون كيف يصنعون منه مجدا لدنياهم، ولا فلاحا لأخراهم، ولا خدمة لأبناء مجتمعهم، ولا يمسحون به دمعة يتيم أو يرفعون به خلة محتاج.. فبقي يضيع في المتاجر لشراء ما لا حاجة له ولا ضرورة، إنما المهم أن يُشترى ليُعرض حتى يتبين من خلال ذلك (الجمال والشخصية)!!

العجيب أنه حتى الجمال صار مستعارا، وصار تمثيلا، فكم تقاسي إحدى هؤلاء من جهد بدني، وضغط نفسي لكي (تبدو) جميلة!!

المجتمع الراقي تعبير عن مجاميع الرياء والمظاهر.. ليس مهما ما الذي يحدث في داخل الأسرة من مشاكل، وما يكلف الأمر من مصاعب، المهم أن (تبدو) بصورة جذابة، وأن (تظهر) أمام الآخرين لافتة للنظر، وأن يقبلن عليها لكي (يتأملن) هذا الثوب أو تلك القطعة من الحلي، وأنها هل هي من تصميم المصمم الفلاني المعروف أو من غيره!! سباق لا ينتهي إلى نقطة وليس فيه خط نهاية لأنه سباق عبثي، وليس فيه جائزة لأنه لا ينتهي.

!!!

على الضفة الأخرى من هذا النهر، تجد المجتمع الحقيقي لا الراقي، المجتمع بكل فئاته وتناقضاته، تجده على صورته الحقيقية، بلا زيف أو مساحيق، وبلا تمثيل.. هنا مسرح الحياة الذي ترى فيه الناس على صورهم الأصلية، وضمن مشاعرهم الطبيعية، في عنفهم ورضاهم، وإحسانهم وأذاهم، ومواجهتهم للمشاكل، وتعرضهم للمصاعب. وفي قضاياهم الحقيقية، في مواقف الإيمان تظهر عناصر الجودة، مع أنهم لا يقصدون (الإظهار أو الإبراز أو الإبداء).. فإذا حدثت نكبة في المجتمع استظهرت تلك النكبة عناصر الخير والبركة في أفراد ذلك المجتمع، وإذا أقبلت على المجتمع فتنة فكرية، تعاملوا معها بوعي ويقين، حتى يخرجوها من دائرة التأثير..

ومن هذه النماذج امرأة حفظ لنا التاريخ موقفها، وإن أغفل نسبها، وأصلها وعائلتها.. أترى التاريخ والذكر الطيب يقف على غير محطات المواقف الحسنة؟ أو يدقق في الأنساب والأشياء الخارجية؟

أم خالد.. امرأة كانت بحجم المسؤولية، فلم تكتف بأن تنعزل عن المجتمع وآلامه ومشاكله، أو تنشغل في مكياجها، وأدوات تجميلها، وأنوثتها حتى تستغرق عليها العمر كله وإنما كانت تنظر بعين البصيرة إلى المجتمع وما يجري فيه من قضايا، فقد كانت من أولياء أهل البيت (عليهم السلام)، منتمية إلى خطهم، فلما رأت ثورة الشهيد زيد بن علي بن الحسين رضوان الله عليه، قامت

تناصرها بمقدار ما تستطيع من التأييد ـ باستثناء المشاركة المباشرة ـ وللعلم فليست مناصرة الثورة تعني بالضرورة الاشتراك القتالي، فإن ما وراء ذلك من مهمات لو لم يكن أكثر من الاشتراك فليس بأقل منه، فالإمداد والتمويل، والدعوة والإعلام وإيجاد الأنصار للخط الثائر بين الناس أمور في غاية الأهمية.

وقُبض عليها من قبل الوالي الأموي الحاقد يوسف بن عمر الثقفي، وهو ثاني الحجاج الثقفي في جرائمه وموبقاته. وكما هي عادة الجبناء مع الضعفاء (أسد علي وفي الحروب نعامة) فقد قام بقطع يد هذه المرأة الصالحة المؤمنة لتكون لباقي النساء تخويفا عن الدخول في الأمور الاجتماعية والسياسية فإن المرأة يصعب عليها أن يتشوه جمالها وأن تفقد أعضاءها وكان يُراهِن على أن يتم تحييد نصف المجتمع هذا وتخويفه، ونصف المجتمع هذا بدوره سيقوم بتخويف الرجال فالمرأة تنصح زوجها بعدم الدخول ما بين السلاطين، والبنت تطلب من أبيها أن لا يثكلها..الخ.. وأيضا ليكون قطع اليد للآخرين عبرة، تردعهم عن الانتماء إلى خط أهل البيت، ولكن خاب فأله وانتكث عليه غزله، فمتى كانت الضغوط والإرهاب تردع أتباع أهل البيت عن إيمانهم، ولكن الظالمين لا يعلمون {يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}.

استمرت هذه المرأة وكانت متكلمة بليغة كما يظهر مما نقل عنها، ومتصدية للشأن الاجتماعي، فلم تكن ترى نفسها أقل من الرجال في كونها مسؤولة عن إيمانها، وعن

الأخطار التي تتهدده.

فما أن نجم قرن شيطان الانحراف في نفوس بعض أتباع الأئمة وأرادوا أن يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، ويستغلوا صحبتهم للإمام لتحقيق مآرب شخصية، والحصول على الحطام الدنيوي.. حتى تبرأ الإمام الصادق (عليه السلام) منهم، فإن (حبيب محمد من أطاع الله) ولا يشفع للإنسان شيء ما لم يشفع له عمله، ولا يستوي المؤمنون وغيرهم..

كثير النواء، سالم بن أبي حفصة، ثابت بن هرمز أبو المقدام والحكم بن عيينة (عتيبة) أسماء كان لها صولات وجولات في معارضة أهل البيت (عليهم السلام).. وتعال عزيزي القارئ لنطل إطلالة على تاريخ تلك الفترة:

ازداد عتو الأمويين وظلمهم، لا سيما في عهد هشام بن عبد الملك الذي كان (أحول خشنا فظا غليظا) كما يقول في مروج الذهب، وكان لا بد لإيقافه من سيف علوي ثائر، فسله زيد بن علي السجاد رضوان الله عليه بعد أن استشار أخاه أبا جعفر الباقر (عليه السلام) وهو يتمثل قول الشاعر:

أذل الحياة وعز الممات وكلا أراه طعاما وبيلا

فإن كان لا بد من واحد فسيري إلى الموت سيرا جميلا

وأعلن ثورته في الكوفة، وكان عليها يوسف بن عمر الثقفي، وقاتل زيد ـ على قلة أصحابه ـ قتالا عنيفا وحال المساء بين الفريقين، فراح زيد مثخنا بالجراح وقد أصابه

سهم في جبهته فطلبوا من ينزع النصل فأتي بحجام من بعض القرى فاستخرج النصل ومات من ساعته، واستُكتم الحجام أمره ودفن في ساقية، وجعلوا على قبره التراب والحشيش، وأجري الماء عليه..وحضر الحجام مواراته ثم ذهب في الصباح ليوسف بن عمر وقد طمع في خسيس المال، ودله على الموضع فكتب هذا بدوره إلى هشام، فكتب إليه أن اصلبه عريانا ثم يحرقه ويذر رماده في الرياح.. ولك أن تتأمل في أي الثلاثة كان أكثر خسة!

كان من أسباب فشل تلك الثورة التفرق الذي صنعه البعض في صفوف أفرادها، فهم في ذلك الوقت الحرج، والذي لا بد أن تتجه الطاقات كلها في مواجهة الحكم الأموي قام هؤلاء الحمقى والمصلحيون بطرح أمور شتت شمل الثائرين وشغلت الجميع بمناقشات نظرية مفرقة، وهنا كان الدور الخبيث لهؤلاء البترية، الذين بتروا ساعد الثورة. فهذا الخليط العجيب من الأفكار لهذه المجموعة الالتقاطية كان سببا أساسيا في تفرق الثائرين وقت المواجهة.

البترية كما يقول المؤرخون: هم جماعة دعوا إلى ولاية علي وخلطوها بولاية أبي بكر وعمر، وهم يبغضون عثمان وأهل الجمل ويقولون بالخروج مع أولاد علي (عليه السلام)، وزاد النوبختي في كتابه ويرون المسح على الخفين، وشرب النبيذ والمسكر وأكل الجري!!

سموا بالبترية لأنهم بدؤوا بطرح هذه القضايا التي تفرق صفوف الثائرين على الحكم الأموي حين الإعداد

للثورة، ففي الخبر عن سدير قال: دخلت على أبي جعفر (الباقر) (عليه السلام) ومعي سلمة بن كهيل وأبو المقدام ثابت الحداد وسالم بن أبي حفصة وكثير النوّا وجماعة معهم، وعند أبي جعفر أخوه زيد بن علي، فقالوا لأبي جعفر (عليه السلام): نتولى عليا وحسنا وحسينا ونتبرأ من أعدائهم؟ قال: نعم. قالوا نتولى أبا بكر وعمر ونتبرأ من أعدائهم؟ فالتفت إليهم زيد بن علي، وقال: أتتبرؤون من فاطمة؟ بترتم أمرنا بتركم الله![1]

وكان أن تحول هذا الخليط من الأفكار إلى أداة تشويش، على الثورة بل على العمل الجاد، فهذه الفئة ليست منسجمة الأفكار فكيف تكون منسجمة العمل، فقد أخذت من كل سائل قطرة، وأرادت أن تخلط العذب الفرات بالملح الأجاج، والعصير بالزيت، فكان ما هم عليه، وإلا فلا جامع يجمع أفكارهم، فلا هم سنة ولا هم شيعة ولا هم خوارج، والعجيب أن مثل الطبري والذهبي يصفان بعضهم بالتشيع المغالي وهم يرون ولاية أبي بكر عمر! ويبرؤون من أعدائهما ولذلك تعجب منهم زيد، فإن فاطمة الزهراء ماتت شهيدة وهي غاضبة منهما، فهل يبرؤون من الزهراء؟؟

وللتناقض الموجود في أفكارهم، فإنهم لا يستطيعون القيام بأي عمل، لأن العمل فرع الفكر والفكر ما لم ينسجم لا يمكن أن يؤدي إلى عمل منسجم، ولذا فقد روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) فيهم: لو أن البترية صف

---

[1] قاموس الرجال ٤/ ٥٩٦.

واحد ما بين المشرق إلى المغرب ما أعز الله بهم دينا.

وأمام هذه الفئات المنحرفة لا بد من توضيح الموقف الصحيح تجاهها حتى يكون الناس على حذر، فما أكثر من يكون في الفتنة ضائعا لا يهتدي سبيل الرشاد ولا يعرف الحق، فقد ينجرف في سيل الفتنة والفتانين، وقد يعاديهم على غير بصيرة، وهنا تكمن أهمية الرجوع إلى الحق وإلى رموزه لتعيين ما ينبغي فعله، وهو ما قامت به أم خالد عندما جاءت إلى الإمام الصادق(عليه السلام)لكي تتعرف منه على الموقف الذي يجب أن تتخذه في مقابل هذه الفئة.

فعن أبي بصير، قال: كنت جالسا عند أبي عبد الله (عليه السلام) إذ جاءت أم خالد التي كان قطعهايوسف تستأذن عليه، قال، فقال أبو عبد الله (عليه السلام): أيسرك أن تشهد كلامها. قال، فقلت: نعم جعلت فداك، فأجلسني على الطنفسة، ثم دخلت فتكلمت فإذا هي امرأة بليغة، فسألته عن فلان وفلان، فقال لها: توليهما! قالت فأقول لربي إذا لقيته انك أمرتني بولايتهما، قال: نعم. قالت: هذا الذي معك على الطنفسة يأمرني بالبراءة منهما، وكثير النواء يأمرني بولايتهما فأيهما أحب اليك؟

قال: هذا والله وأصحابه أحب إلي من كثير النواء وأصحابه، إن هذا يخاصم فيقول من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون، فلما خرجت، قال: إني خشيت أن تذهب فتخبر كثير النواء فيشهرني بالكوفة.

وذيّل الكشي الحديث بقوله: في القاموس: ولى تولية أدبر كتولى والشيء، وعنه أعرض أو نأى. قوله: قالت فإن هذا الذي معك يظهر من إعادته السؤال وقولها فإن هذا الذي معكإلى قولها فأيهما أحب إليك، أنها تشككت في قوله(عليه السلام)توليهما أنه بمعنى ولايتهما ومحبتهما، أو بمعنى التخلي والاعراض عنهما[١].

ويلحظ في دخولها على الإمام الصادق (عليه السلام) أمور متعددة:

اهتمامها بالشأن السياسي الديني والذي بذلت فيه من أجل موقفها في تأييد ثورة الشهيد زيد يدها، حيث قطعها يوسف بن عمر الثقفي على خلفية تأييدها لتلك الثورة، ثم فيما بعد عندما نشبت فتنة البترية حيث قامت قاصدة للإمام الصادق لكي تتعرف من خلاله على الموقف الصحيح الذي ينبغي أن يتخذ تجاهها.

والآخر وهو أن المرأة تستطيع أن تمارس دورها الاجتماعي والديني بل ينبغي لها ذلك، والإسلام هنا لا يمنعها بل يراها مسؤولة أيضا، فالولاية لأولياء الله والبراءة من أعدائه لا تختص بالرجال، ووعي ما يحصل في المجتمع ليس أمرا رجاليا ذكوريا، بل النساء مطالبات به أيضا، ولذلك رأينا أن الإمام (عليه السلام)، لم ينكر عليها تصديها لمثل هذه الأمور بل يطلب من أبي بصير أيضا أن يستمع إليها وهي متكلمة بليغة، وهذا ما استفاد منه كثير من العلماء في الرد على القول بأنه لا يجوز أن

---

[١]اختيار معرفة الرجال ٥٩/٢.

تُسمع المرأة صوتها للرجال، وأنه لا يجوز أيضا استماع الرجال لهن بما زاد على كلمات محدودة.. بينما خص المشهور ذلك بالاستماع التلذذي، أو عند خوف الوقوع في الحرام.. وأما لو تجرد من ذلك فلا مانع وقد استدلوا بما جرت عليه السيرة من كلام النساء مع الرجال وسؤالهن للمعصومين(عليهم السلام) وإجابة المعصومين لهن على الأسئلة، وفي هذا الحديث إشارة واضحة لما ذكر. وقد استعرض هذا الأمر بنحو مفصل الفاضلُ الهندي رحمه الله في كشف اللثام[1].

مضى ذلك الزمان، ويمضي غيره، وتطوى الأعمار، وتخلولق الثياب بل والأجساد التي تم الحرص عليها التنافس في كسوتها بما غلا وكلف، لكن المواقف تبقى وتزداد إشراقا وضياء، وكلما مر عليها الزمان وابتعد الإنسان عن القيم، زاد توهجها ألقاً..

لم يبق من (أم خالد) غير اسم حفظ لها موقفا رساليا ورياديا رائعا، ويد سبقتها إلى الجنة دفعتها ـ وهي أغلى عليها من الدنيا ـ ثمنا للدين والموقف المدافع عن القيم، بينما يدفع الآخرون دينهم ثمنا لدنياهم، فهنيئا لها، وحشرها الله حيث استقرت يدها تحت قباب المجاهدين.

---

[1] أيضا يمكن الرجوع إلى كتاب (من قضايا النهضة الحسينية) للمؤلف ، سؤال هل صوت المرأة عورة .

زينب بنت عبد الله بن الحسن بن الحسن المجتبى (عليه السلام)

نقطة المركز في دائرة الشهادة

لو أردت أن تبحث عن نموذج أحاطت به الشهادة الدامية من كل أطرافه فهاك إياه.. زينب بنت عبد الله بن الحسن المثنى (بن الحسن المجتبى) .. أبوها شهيد في السجن العباسي، وابنها شهيد فخ: الحسين بن علي بن الحسن المثلث [1] (بن الحسن بن الحسن المجتبى) وزوجها علي بن الحسن المثلث الذي قضى شهيدا متحديا في سجن المنصور. وإخوتها شهداء الثورة محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية وأخوه إبراهيم، وثالثهم إدريس الذي استشهد مسموما في بلده في المغرب بتدبير هارون العباسي، وموسى..

فهي محاطة بدائرة شهداء فمن تنتسب إليهم في الحلقة الأولى شهداء في معارك الحق العلوي ضد الباطل العباسي، وفي الحلقة الثانية كذلك فأبناء أختها رقية أيضا ممن سلكوا درب الشهادة مع شهيد فخ. وأعمامها كذلك.. وأبناء عمومتها.

---

[1] / يطلق على الحسن بن الحسن (الحسن المثنى) وعلى الحسن بن الحسن بن الحسن (الحسن المثلث) اختصارا وتمييزا .

تقاسم الحسنيون والحسينيون مجد التغيير في الأمة، ففيما أنيطت مهمات الإمامة العظمى والولاية الربانية بالأئمة التسعة من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وكانوا بحق «شجرة النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومعدن العلم، والفلك الجارية في اللجج الغامرة، والكهف الحصين وغياث المضطر المستكين»، «فيهم كرائم القرآن وهم كنوز الرحمن إن نطقوا صدقوا وإن صمتوا لم يسبقوا»[1]. فحفظوا بذلك رسالة جدهم المصطفى ومواريث علمه، وبثوها بين الناس وكانوا خير الحفظة والخزنة.

وأما الحسنيون فقد سلوا سيفا كذي الفقار أو كشعلة من نار على الفسقة والظلمة الذين اتخذوا مال الله بين الجواري والغانيات دولا وأشراف الأمة عبيدا وخولا، والصالحين حربا والفاسقين حزبا وبذلك أوقفوا الانهيار التام الذي كانت الأمة على شُرف الوقوع فيه..

عندما أصبح الحاكم يقول بكل صلافة: لا يأمرني أحد بعد يومي هذا بتقوى الله إلا أخذت عنقه.. والآخر يقول: الخليفة هذا فإن قضى فهذا، ومن أبى فهذا ـ مشيرا إلى سيفه ـ هنا لا مرجع إلا للسيف الصارم والموقف البطولي الصادق، الذي يعكر ليل الظالم ويجعله يفكر ألف مرة قبل الإقدام على ما يشتهي من إذلال الأمة، وتحريف الملة.

وهل ضاعت الأمة إلا بعد أن ضاع خط الحسين وزيد

---

[1] نهج البلاغة خطبة ١٥٤.

الشهيد، وأمثالهم من الذين تواردوا حياض المنية ورود الهيم العطاش؟

كانت ثورة أبي الشهداء وإمام الأحرار الحسين السبط (عليه السلام) فاتحة الخير في الأمة فقلبت على الحاكمين معادلتهم إذ ظنوا أنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يشاؤون، وولدت من رحمها ثورة التوابين، والمختار، وبعد ذلك ثورة الشهيد زيد بن علي السجاد (عليه السلام) وبها أعلن رسميا ختام الدولة الأموية.

وجاء العباسيون، في غفلة من الزمان وهم الذين كانوا سوقة[1]، يتفيئون ظل بني أبي طالب ويتعلقون بأذيال الحسنيين والحسينين، ولم يكونوا في العير ولا في النفير، بل كانوا في أفضل الفروض أتباعا مصلحيين يتهيؤون لفرصة تقتنص، والملاحظ لسيرتهم منذ بداية عهد النبوة يرى فيهم تلك الفئة المصلحية التي تقدر أين تكون مصلحتها فتتبعها ولا يمنعها عن ذلك وجدان ديني أو عهد مأخوذ ـ ولو استثنيت بعض أوائل العائلة من ذلك ـ لوجدت أن هذه الأسرة كانت على خط الانتهازية، ولم يكن لهم لا سيما في أواخرهم مبدأ محدد يكونون عليه فهم بحسب الفرض في طرف بني هاشم، ولكنهم ضد أولاد

---

[1] الإمام جعفر الصادق (ع)- عبد الحليم الجندي ص ٧٩ :

قيل للمنصور " لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو " ! فقال : لأن بني مروان لم تبل رممهم بعد . ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة ونحن اليوم خلفاء ، فليس تتمهد هيبتنا في نفوسهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة.

علي (عليه السلام)، وهم يستفيدون من دعوة الرضا من آل محمد فإذا ما انتهت الدولة الأموية جردوا السيف على آل محمد..وهكذا فأنت لا تجد لهم طريقة واحدة فهم تارة مع أبي حنيفة وفقهه لكنه إذا اختلف معهم سياسيا، غيروه وبدلوه كما يصنعون بثيابهم، من دون أي تردد.. فليس الدين عندهم أو المبدأ بأمر يمكن الثبات عليه وإنما هو المصلحة وانتهاز الفرصة.

وبهذه الطريقة وصلت إليهم أمور الدعوة التي كان يقودها العلويون من أبناء محمد بن الحنفية وأوصى أبو هاشم بن محمد بن الحنفية قبل أن يموت مسموما بتدبير سليمان بن عبد الملك وتوفي وهو في طريقه إلى الحميمة ـ بين الشام والحجاز ـ إلى محمد بن علي بن العباس[1] وقد كان يقيم في تلك المنطقة، لكيلا تضيع جهوده في الدعوة لحق أهل البيت، وقد يكون قد وثق بأنه سيؤدي الحق إلى أصحابه غافلا عن الحالة الانتهازية التي طبعت حياة العباسيين والذين سرقوا تلك الجهود إلى الأخير، وعلى العموم فقد سلمه أسرار الدعوة واسم داعي الدعاة في الكوفة، ومن يليه من الدعاة كما سلمه رسائل يقدمها إليهم، وكتب رسائل لهم لينتقل بتلك الوصية إلى العباسيين تراث الثورة العلوية..

وجاء أولئك السوقة الذين في أعناقهم بيعة لبني هاشم، لا سيما أبو جعفر المنصور الدوانيقي الذي بايع بيعة

---

[1] تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ٢ / ١٤.

مؤكدة لمحمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية، والذي لقب من قبل أبيه وبعض الناس بالمهدي، لما رواه العامة من أن المهدي اسمه اسم رسول الله واسم أبيه أسم أبي رسول الله.

وانتصر التراث العلوي المعارض، والدعوة إلى الرضا من آل محمد، إذ أن قيادة أهل البيت كانت أمل الأمة بعد أن طويت عنها صفحات حكم أمير المؤمنين (عليه السلام)، والذين سمعوا عن حكمه، فضلا عن الذي عاشوا في عهده رأوا فيه صورة حكم رسول الله، وهكذا كانت الأمة تنتظر:

ساسة لا كمن يرى رعية النـ ـاس سواء ورعية الأغنام

وكان شعار الدعوة هو هذا، قائد مرضي من آل بيت النبي (صلى الله عليه وآله)، وأقبل الناس حتى (إذا جاءه لم يجده شيئا) وإنما وجد بني العباس، وهي صورة أخرى تؤمن بأن الملك عقيم ولو نازعها رسول الله إياه لقاتلته.. وتؤمن بأن كل ما كان إنما هو لأجل عجة المخ والسكر![1]

وهنا كان العلويون على موعد مع التصحيح والثورة على الباطل، فقامت الثورات يقودها آل الحسن، ويشاركهم في ذلك أبناء زيد بن علي بن الحسين، فكانت

---

[1] ذكر في مروج الذهب أن المنصور هيئت له عجة من مخ وسكر فاستطابها ، فقال : أراد إبراهيم (بن عبد الله بن الحسن) أن يحرمني هذا وأشباهه !!

ثورة النفس الزكية، وأخيه إبراهيم، ثم ثورة الحسين بن علي شهيد فخ.

!!!

زينب بنت عبد الله بن الحسن المثنى عايشت كل تلك الظروف والأجواء واكتوت بنارها، وعلى الله أجر النساء الصابرات، فقد يهون الخطب على المجاهد الذي يواجه عدوه في ميدان المعركة، فما هي إلا ساعة (نميل عليهم أو يميلون علينا حتى نصير إلى الجنة) لكن تبقى المعاناة، ويتفرعن الألم والأسى، عند النساء فإذا بكل زاوية في البيت مأتم، وإذا بكل مشكلة تمر عليهن من غير ولي ولا حمي كارثة..

خصوصا إذا قام أولئك الطغاة بزيادة المعاناة فشتتوا الشمل، وصادروا الأملاك.. وإذا كانت الملوك والرؤساء تبدأ حكمها وعهدها بشيء من الرحمة، وإذا حلت في منطقة أعطت أهلها ما يبقي في أنفسهم ذكرى طيبة، ويتمنون في أنفسهم أن تتكرر زيارة هذا الحاكم للمنطقة، فإن المنصور العباسي خالف حتى هذا التقليد، دع عنك أمور العدل، والرحمة الإسلامية وحفظ صلات الرحم..

فإنه بعد أن زار مدينة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكان قد أمر عامله قبلئذ بسجن عبد الله بن الحسن بن الحسن، وإخوته حتى يخرجوا له محمد وإبراهيم ابني عبد الله، وكان المنصور أيضا قد بايع لمحمد بن عبد الله (في نهاية أيام الأمويين)، وبدلا من إكرامه ـ إمامه الذي بايع له ـ ها هو يفتش عنه للقبض عليه وإعدامه، فاختفى محمد واستعد للقيام ضده، ولما لم يجده المنصور قام

باعتقال جماعي لأسرة أبيه، بعد أن أوقع بعبد الله في حيلة من حيل جواسيسه.. وسجن آل الحسن في مدينة جدهم رسول الله.

ثم لما جاء المدينة استعرضهم بالضرب والجلد وأمر أن يحملوا إليه مغللين ومقيدين، بينما كانت المرأة الصالحة زينب بنت عبد الله تندب أباها وأهلها حين حملوا قائلة: واعبرتاه من الحديد والعباء والمحامل المعراة.

الزوج الصامد والمرأة الثاكل

وكان ممن سجن معهم زوجها علي بن الحسن المثلث، الذي كان يقال له علي الخير والأغر والعابد، ولقد أبدى من صلابة النفس، وقوة الداخل ما يعجز عنه غيره، فقد أتي آل الحسن بأقياد يقيدون بها، وكان علي بن الحسن هذا قائما يصلي، بينما كان في الأقياد قيد ثقيل فجعل كلما قرب إلى رجل تفادى منه واستعفى، فانفتل علي من صلاته وقال: لشد ما جزعتم! شرعُه هذا..ثم مد رجليه فقيد به.

وبعد مدة لما اتسعت حلق القيود على أثر الضعف الذي أصابهم من الجوع والأذى، يقول بعضهم: كنا إذا أردنا صلاة أو نوما خلعناها عنا فإذا خفنا دخول الحرس أعدناها وكان علي بن الحسن لا يفعل ذلك، فقال له عمه: ما يمنعك يا بني أن تفعل؟ قال: لا والله لا أخلعه أبدا حتى أجتمع أنا وأبو جعفر عند الله فيسأله لمَ قيدني به؟

وكان المطبق الذي حبسوا فيه ستين ليلة لا يعرفون الليل من النهار، وما كانوا يعرفون أوقات الصلاة إلا

بأجزاء يقرؤها علي بن الحسن المثلث.

واشتد البلاء، وعظمت المعاناة فإن السجن الذي هم فيه تحت الأرض، ورائحته كريهة، ولقد منعوا حتى من قضاء الحاجة خارجه، فكانوا يقضونها فيه مما سبب للبعض منهم أمراضا جلدية، ومشاكل صحية.. فضجر عبد الله بن الحسن، وقال لابن أخيه علي بن الحسن: يا علي ألا ترى إلى ما نحن فيه من البلاء؟ ألا تطلب إلى ربك عز وجل أن يخرجنا من هذا الضيق والبلاء؟

فسكت عنه علي طويلا، ثم قال يا عم إن لنا في الجنة درجة لم نكن لنبلغها إلا بهذه البلية، أو بما هو أعظم منها وإن لأبي جعفر (المنصور) في النار موضعا لم يكن ليبلغه حتى يبلغ بنا مثل هذه البلية، أو أعظم منها، فإن تشأ أن تصبر فما أوشك فيما أصبنا أن نموت فنستريح من هذا الغم كأن لم يكن منه شيء، وإن تشأ أن ندعو ربنا عز وجل أن يخرجك من هذا الغم ويقصر بأبي جعفر غايته التي له في النار، فعلنا!

فقال عبد الله: لا، بل أصبر[١].

فما مكثوا ثلاثة أيام حتى قبضهم الله إليه، وكان لعلي بن الحسن حين توفي خمسة وأربعون عاما.

خلال عامين، أثكلت زينب بأخيها محمد النفس الزكية، وإبراهيم، في المعركة وبأبيها وزوجها في السجن وبعمومتها وأبناء عمومتها.

---

(١)مقاتل الطالبيين ١٧٧.

وتحاملت المرأة الصالحة - هي وابنة أخيها فاطمة بنت محمد - على آلامهما، وبعثتا إلى عيسى بن موسى القائد العباسي الذي قاتل محمدا: إنكم قد قتلتم هذا الرجل وقضيتم حاجتكم فلو أذنتم لنا فواريناه!

فأرسل إليهما: أما ما ذكرتما يا ابنتي عمي أني نلت منه فو الله ما أمرت ولا علمت، فوارياه راشدتين..

فبعثتا إلى جسد محمد، فاحتمل وجهز ودفن بالبقيع.

العلاقة بين الأئمة المعصومين والثوار الحسنيين

تثار أسئلة حول طبيعة العلاقة التي كانت تربط بين أئمة أهل البيت المعصومين وبين الثوار من آل الحسن (عليه السلام)، فهل كان الأئمة راضين عن تحركاتهم العسكرية؟ وهل كانوا يؤيدونها؟ وما هي نظرة الثوار من آل الحسن للأئمة(عليهم السلام)؟ هل كانوا على خط الإمامة في نظرهم إليهم؟ وبالتالي هل يمكن تزكية ثورات الحسنيين وتأييدها؟

ومع أن هذا الموضوع مفصل، ويحتاج إلى بحث مستوعب، إلا أننا سنشير هنا بالمناسبة إلى بعض محددات العلاقة الموجودة بين الطرفين.

محددات العلاقة

١ - الإخبار بالواقع وأن ثوراتهم لن يحالفها النجاح، وهو الأمر الذي قام به الأئمة مع أنه كان يضايق بعض آل الحسن وربما كانوا يرون فيه نوعا من التثبيط، بينما

هو تحليل واقعي للحدث، فإذا مضى الإنسان يكون على بصيرة، وليس معنى ذلك الوقوف، فقد يريد المرء أن يأمر بالمعروف بغض النظر عن النتيجة التي سيصل إليها.

وربما كان هذا لا يرتاح إليه بعض أبناء الإمام الحسن (عليه السلام) ، ولكنه الواقع.. فإن المؤرخين يذكرون أن بني هاشم اجتمعوا فخطبهم عبد الله بن الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنكم أهل البيت قد فضلكم الله بالرسالة واختاركم لها وأكثركم بركة يا ذرية محمد بنو عمه وعترته وأولى الناس بالفزع في أمر الله من وضعه الله موضعكم من نبيكم.

واستمر في خطبته ودعاهم أخيرا إلى مبايعة ابنه محمد (فقد علمتم أنه المهدي).. لكن بعض الجالسين أشار إلى أن جعفر بن محمد غير موجود فأرسلوا إليه، وتشير بعض المصادر التاريخية هنا إلى أن عبد الله بن الحسن لم يرحب بذلك الاقتراح، ولكنهم دعوا الإمام الصادق، الذي أشار لما جاء بأن الأمر لن يكون فيه النصر، وقال: إن الأمر سيكون لبني العباس، وأن المنصور منهم سيقتل محمدا!!

كان هذا الكلام في ذلك الوقت في غاية الغرابة، وذلك أن المنصور كان أول المبادرين إلى بيعة محمد وأكثر المزايدين عليها فقد قال: لأي شيء تخدعون أنفسكم والله لقد علمتم ما الناس إلى أحد أميل أعناقا ولا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى ـ يعني محمد بن عبد الله ـ.

وبطبيعة الحال لما كان الأئمة(عليهم السلام) لا يرون

نجاح هذه الثورات أمرا واقعيا، لم يكونوا ليضعوا كل جهدهم فيها أو يرتبوا حساباتهم على أساس انتصارها. وهذا ما كان يزعج القائمين عليها ولكنه الواقع.

٢ ـ ومن ذلك أن خطة الأئمة(عليهم السلام) لا تقتصر في الإصلاح على العمل العسكري والثورة المسلحة وإنما كانت ترى أن الأوضاع أكثر تعقيدا من إصلاحه بمجرد الثورة والعمل العسكري، وأنه لا بد من القيام بعمل يتجه نحو تغيير ثقافة الناس وفكرهم حتى يلتزموا بتوجيهات الدين، وأن يتم التوجه أيضا إلى تبين معالم الإسلام التي تكاد أن تمحي يوما بعد يوم لذلك كانوا يتوجهون إلى حماية الثغور العقيدية، وبيان أحكام الإسلام، الأمر الذي لم يكن بإمكان غيرهم ألقيام به، وهذا معنى ما قاله الإمام الصادق(عليه السلام)لبعضهم «والله إني لأراه ـ الجهاد ـ ولكن أكره أن أدع علمي إلى جهلهم»

٣ـ ولكن ذلك لا يعني أنهم كانوا يعارضون ثوراتهم، بل بمقدار ما كانت تسمح الظروف لهم (وأيضا بمقدار ما كانت تلك الثورات أقرب إلى الخط السليم، وذلك أن بعض هؤلاء ربما ادعى أو ادعي له الإمامة أو المهدوية..الخ، مما كان لا ينبغي تأييده في هذا المقدار بل ربما نازع بعضهم بعض الأئمة وأغلظ القول لهم لكن كانت نهاية أمرهم حسنة كما يرى السيد ابن طاووس و العلامة المجلسي .).كانوا يؤيدون، ويثنون.. وربما مع كل هذا التحفظ فقد كان الحكام يتهمون الأئمة بأنهم هم الذين حركوا تلك الثورات ومنه اتهام الهادي العباسي للكاظم(عليه السلام)بأنه هو الذي حرك الحسين شهيد فخ،

وأنـه سـوف يقتلـه، أو غيـره وأنهـم مـا خرجـوا إلا عـن أمرهم،هذا مع أن الأئمة لم يكونوا يتظاهرون بتأييد هؤلاء فكيف لو تظاهروا..

كانوا يترحمون عليهم ويظهرون تألمهم مما يصيبهم، والنـاظر إلـى رسـالة الإمـام الـصادق (عليـه الـسلام) لآل الحـسن لمـا حملـوا مـن المدينـة يتبـين لـه شـدة تألمـه ممـا أصابهم واشتراكه معهم في أساهم. فقد ذكر السيد رضـي الدين بن طاووس (توفي سنة ٦٦٤ هـ) فـي الإقبـال بسنده عن شيخ الطائفة عن المفيد والغضائري عن الصدوق عن ابن الوليد عن الصفار عن ابن أبـي الخطـاب عن ابـن أبـي عمير عن إسحاق ابن عمار. وأيضا بالاسناد عن الشيخ عن أحمد بن محمد بن سعيد بن موسى الاهوازي عن ابـن عقدة عن محمد بن الحسن القطراني عن الحسين بن أيـوب الخثعمي عن صالح بن أبي الاسود عن عطية بن نجيح بـن المطهر الرازي وإسحاق بن عمار الصيرفي قالا:

إن أبا عبد الله جعفر بن محمد كتب إلى عبد الله بـن الحسن حين حمل هو وأهل بيته يعزيه عما صار إليه: بسم الله الرحمن الرحيم إلى الخلف الصالح والذرية الطيبـة مـن ولـد أخيـه وابـن عمـه. أمـا بعد: فلئن كنت قد تفردت أنت وأهل بيتك ممن حمل معك بما أصابكم مـا نفردت بـالحزن والغيظ والكآبة وأليم وجع القلب دوني ولقد نـالني مـن ذلـك مـن الجـزع والقلـق وحـر المـصيبة مثـل مـا نالـك ولكـن رجعت إلـى مـا أمـر الله عـز وجل بـه المتقين مـن الـصبر وحـسن العـزاء حـين يقـول لنبيـه (صـلى الله عليـه وآلـه) الطيبـين {وَاصْـبِرْ لِحُكْـمِ رَبِّـكَ فَإِنَّـكَ بِأَعْيُنِنَـا} وحـين

يقول{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ }« وحين يقول لنبيه (صلى الله عليه وآله) حين مثل بحمزة {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} فصبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولم يعاقب. وحين يقول{وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} وحين يقول{الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ! أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} وحين يقول: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} وحين يقول لقمان لابنه {وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} وحين يقول عن موسى {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}. وحين يقول {إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} وحين يقول { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ } وحين يقول {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}. وحين يقول {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} وحين يقول {وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ }وحين يقول {وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} وأمثال ذلك من القرآن كثير. واعلم أي عم وابن عم أن الله عز وجل لم يبال بضر الدنيا لوليه ساعة قط ولا شيء أحب إليه من الضر والجهد والبلاء مع الصبر وأنه تبارك وتعالى لم يبال بنعيم الدنيا لعدوه ساعة قط ولولا ذلك ما

كان أعداؤه يقتلون أولياءه ويخوفونهم ويمنعونهم وأعداؤه آمنون مطمئنون عالون ظاهرون ولولا ذلك لما قتل زكريا ويحيى بن زكريا ظلما وعدوانا في بغي من البغايا ولولا ذلك ما قتل جدك علي بن أبي طالب(عليه السلام)ـ لمّا قام بأمر الله عز وجل ـ ظلماً وعمك الحسين بن فاطمة صلى الله عليهم اضطهادا وعدوانا. ولولا ذلك ما قال الله عز وجل في كتابه {وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} ولولا ذلك لما قال في كتابه{أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ! نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ }. ولولا ذلك لما جاء في الحديث: لولا أن يحزن المؤمن لجعلت للكافر عصابة من حديد فلا يصدع رأسه أبدا ولولا ذلك لما جاء في الحديث إن الدنيا لا تساوي عند الله عز وجل جناح بعوضة ولولا ذلك ما سقى كافرا منها شربة من ماء ولولا ذلك لما جاء في الحديث: لو أن مؤمنا على قلة جبل لابتعث الله له كافرا أو منافقا يؤذيه ولولا ذلك لما جاء في الحديث: إنه إذا أحب الله قوما أو أحب عبدا صب عليه البلاء صبا فلا يخرج من غم إلا وقع في غم. ولولا ذلك لما جاء في الحديث ما من جرعتين أحب إلى الله عز وجل أن يجرعهما عبده المؤمن في الدنيا من جرعة غيظ كظم عليها وجرعة حزن عند مصيبة صبر عليها بحسن عزاء واحتساب ولولا ذلك لما كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) يدعون على من ظلمهم بطول العمر وصحة البدن وكثرة المال والولد ولولا ذلك ما بلغنا أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان إذا خص رجلا بالترحم عليه والاستغفار استشهد فعليكم يا عم وابن

عـم وبنــي عمـومتي وإخـوتي بالـصبر والرضـا والتـسليم والتفـويض إلــى الله (عـز وجـل) والرضـا بالـصبر علــى قضائه والتمسك بطاعته والنزول عند أمره أفرغ الله علينـا وعلـيكم الـصبر وخـتم لنـا ولكـم بـالأجر والـسعادة وأنقـذنا وإياكم من كل هلكة بحوله وقوتـه إنـه سميع قريـب وصـلى الله عليه صفوته من خلقه محمد النبي وأهل بيته .

أقول: وهذا آخر التعزية بلفظها من أصل صحيح بخط محمد بن علي بـن مهجنـاب البـزاز تاريخـه فـي صـفر سـنة ثمـان وأربعين وأربعمائـة وقد اشـتملت هذه التعزيـة علـى وصـف عبد الله بن الحسن بالعبد الصالح والـدعاء لـه وبنـي عمه بالسعادة وهذا يدل على أن الجماعة المحمولين كـانوا عند مولانـا الـصادق (عليـه الـسلام) معذورين وممـدوحين ومظلومين وبحبه عارفين.

أقـول: وقـد يوجـد فــي الكتـب أنهـم كـانوا للـصادقين (علـيهم الـسلام) مفـارقين وذلـك محتمـل للتقيـة لـئلا ينـسب إظهـارهم لإنكـار المنكـر إلـى الأئمـة الطـاهرين. وممـا يـدل عليه ما رويناه بإسنادنا إلى أبي العباس أحمد بن نـصر بـن سعد من كتاب الرجل مما خرج منه وعليـه سـماع الحـسين بن علي بـن الحسن وهو نـسخة عتيقـة بلفظـه قـال: أخبرنـا محمد بن عبد الله بن سعيد الكندي قال: هذا كتاب غالب بن عثمان الهمداني وقرأت فيه أخبرنـي خلاد بن عمير الكندي مولى آل حجر بن عدي قال دخلت على أبي عبد الله (عليه السلام) قال: هل لكم علم بآل الحسن الـذين خـرج بهـم ممـا قبلنـا وكـان قد اتـصل بنـا عـنهم خبـر فلـم نحـب أن نبدأه بـه فقلنا: نرجو أن يعـافيهم الله. فقـال: وأيـن هـم مـن العافيـة ثـم

بكى(عليه السلام)حتى علا صوته وبكينا.

ثم قال: حدثني أبي عن فاطمة بنت الحسين قالت: سمعت أبي صلوات الله عليه يقول: يقتل منك أو يصاب منك نفر بشط الفرات ما سبقهم الأولون ولا ويدركهم الآخرون وإنه لم يبق من ولدها غيرهم. أقول: وهذه شهادة صريحة من طرق صحيحة بمدح المأخوذين من بني الحسن عليه و(عليهم السلام) وأنهم مضوا إلى الله جل جلاله بشرف المقام والظفر بالسعادة والاكرام.

ومن ذلك ما رواه أبوالفرج الاصفهاني عن يحيى بن عبد الله ـ الذي سلم من الذين تخلفوا في الحبس من بني الحسن ـ فقال: حدثنا عبد الله بن فاطمة الصغرى عن أبيها عن جدتها فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) قالت: قال لي رسول الله: يدفن من ولدي سبعة بشط الفرات لم يسبقهم الأولون ولم يدركهم الآخرون فقلت: نحن ثمانية فقال: هكذا سمعت فلما فتحو الباب وجدوهم موتى وأصابوني وبي رمق وسقوني ماءا وأخرجوني فعشت.

ومن الاخبار الشاهدة بمعرفتهم بالحق ما وراه أحمد بن إبراهيم الحسيني في كتاب المصابيح بإسناده أن جماعة سألوا عبد الله بن الحسن وهو في المحمل الذي حمل فيه إلى سجن الكوفة فقلنا: يا ابن رسول الله محمد ابنك المهدي فقال: يخرج محمد من ههنا ـ وأشار إلى المدينة ـ فيكون كلحس الثور أنفه حتى يقتل ولكن إذا سمعتم بالمأثور وقد خرج بخراسان فهو صاحبكم.

أقول: لعلها بالموتور وهذا صريح أنه عارف بما

ذكرناه. ومما يزيدك بيانا ما رويناه بإسنادنا إلى جدي أبي جعفر الطوسي عن جماعة عن هارون بن موسى التلعكبرى عن ابن همام عن جميل عن القاسم بن إسماعيل عن أحمد بن رياح عن أبي الفرج أبان بن محمد المعروف بالسندي نقلناه من أصله قال: كان أبو عبد الله(عليه السلام)في الحج في السنة التي قدم فيها أبو عبد الله (عليه السلام) تحت الميزاب وهو يدعو وعن يمينه عبد الله بن الحسن وعن يساره حسن بن حسن وخلفه جعفر بن الحسن قال: فجاءه عباد بن كثير البصري فقال له: يا أبا عبد الله قال: فسكت عنه حتى قالها ثلاثا قال: ثم قال له: يا جعفر قال: فقال له: قل ما تشاء يا أبا كثير قال: إني وجدت في كتاب لي علم هذه البنية رجل ينقضها حجرا حجرا قال: فقال: كذب كتابك يا أبا كثير ولكن كأني والله بأصفر القدمين حمش الساقين ضخم البطن رقيق العنق ضخم الرأس على هذا الركن ـ وأشار بيده إلى الركن اليماني ـ يمنع الناس من الطواف حتى يتذعروا منه ثم يبعث الله له رجلا مني وأشار بيده إلى صدره فيقتله قتل عاد وثمود وفرعون ذي الاوتاد قال: فقال له عند ذلك عبد الله بن الحسن: صدق والله أبو عبد الله(عليه السلام)حتى صدقوه كلهم جميعا.

أقول: فهل تراهم إلا عارفين بالمهدي وبالحق اليقين. ومما يزيدك بيانا أن بني الحسن(عليه السلام)ما كانوا يعتقدون فيمن خرج منهم أنه المهدي وإن تسموا بذلك إن أولهم خروجا وأولهم تسميا بالمهدي محمد بن عبد الله بن الحسن وقد ذكر يحيى بن الحسين الحسني في كتاب

الأمالي بإسناده عن طاهر بن عبيد عن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن أنه سئل عن أخيه محمد أهو المهدي الذي يذكر فقال: إن المهدي عِدَة من الله تعال لنبيه صلوات الله عليه وعده أن يجعل من أهله مهديا لم يسم بعينه ولم يوقت زمانه وقد قام أخي لله بفريضة عليه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فان أراد الله تعالى أن يجعله المهدي الذي يذكر فهو فضل الله يمن به على من يشاء من عباده وإلا فلم يترك أخي فريضة الله عليه لانتظار ميعاد لم يؤمر بانتظاره.

وروى في حديث قبله بكراريس من الأمالي عن أبي خالد الواسطي أن محمد بن عبد الله بن الحسن قال: يا أبا خالد إني خارج وأنا والله مقتول ثم ذكر عذره في خروجه مع علمه أنه مقتول وكل ذلك يكشف عن تمسكهم بالله و الرسول (صلى الله عليه وآله).[١]

وقد نقل عن الإقبال العلامةُ المجلسي تحقيقه بطوله، ولم يعلق عليه مما يشير إلى عدم مخالفته لما ورد فيه[٢].

---

(1)إقبال الأعمال للسيد بن طاووس / ٥٨.

(2)بحار الأنوار ٤٣ / ٣٠٢.

زوجة عبيد الله الحلبي

«كانت أفقه منك..»

الإمام الصادق (عليه السلام)

بقدر ما ركز القرآن الكريم على الفرد ومسؤوليته، وأنه يؤاخَذ ويُعطى بقدر ما يسعى، {وَأَنْ لَيْسَ لِلإنسان إلا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى} ٣٦ ، وأن الله سبحانه قد قرر أنه لا يؤاخذ بجريرة غيره من آبائه، بل ترك له الاختيار، وقدرة القرار المستقل وبيّن {ألا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [37].

إلا أنه بنفس ذلك المقدار قد تحدث عن دور الأسر الصالحة، التي يتكرس فيها الإيمان والفضيلة، وبين أثرها في من يتولد فيها، فأبرز تلك الذريات الطيبة، والعتر الصالحة، والأصول الشامخة، والأرحام المطهرة.. {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبراهيم وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}٣٨. {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ

---

[36]) النجم ٣٩-٤٠

[37]) النجم ٣٨

[38]) آل عمران: ٣٣- ٣٤

وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إبراهيم وَإِسْرائيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً} [٣٩].

ومثلما وجدنا في التاريخ القديم أسرا وقبائل {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ} ٤٠ كان هناك {آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ }، وربما كان ذلك منبع حسد من قبل بعض الناس ولكن ذلك لا يمنع تقرير تلك الحقيقة {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إبراهيم الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً} ٤١.

ولم تكن القضية خاصة بذريات الأنبياء، وإن كانوا في المرتبة العالية، بل كان في تاريخ الإيمان أسر وقبائل، توارثت الإيمان والهداية والعلم كما يتوارث غيرهم الذهب والأسماء!

ومن تلك العوائل الناصعة الذكر في سماء الإيمان والعلم، الحلبيون.

قال فيهم السيد بحر العلوم رحمه الله في الفوائد الرجالية[٤٢]:

---

[39]) مريم:٥٨

[40]) الأنفال:٥٤

[41]) النساء:٥٤

[42]) ج ١ ص ٢١٤

آل أبي شعبة الحلبيون: خير شعبة من شعب الشيعة، وأوثق بيت اعتصم بعرى أهل البيت المنيعة.

كان أبو شعبة من أصحاب الحسن والحسين.

وابناه: علي وعمر. وبنو علي وهم: عبيد الله، ومحمد، وعمران، وعبد الأعلى كلهم من أصحاب الصادق (عليه السلام) . ويحيى بن عمران من أصحاب الصادق والكاظم . وأحمد بن عمر بن أبي شعبة من أصحاب الكاظم والرضا .

وجاء إطراء آل ابي شعبة في اكثر المعاجم.

فقد قال النجاشي: آل أبي شعبة بالكوفة بيت مذكور من أصحابنا. وروى جدهم أبو شعبة عن الحسن والحسين، وكانوا جميعهم ثقات، مرجوعا إلى ما يقولون.

هذا عن البيت والأسرة، وأما الأفراد:

فمنهم عبيد الله بن علي بن أبي شعبة الحلبي، مولى بني تيم اللات بن ثعلبة، أبو علي، كوفي، كان يتجر - هو وأبوه وأخوته إلى حلب، فغلبت عليهم النسبة إلى حلب.

وكان عبيد الله كبيرهم ووجههم. وصنف الكتاب[43] المنسوب إليه، وعرضه على أبي عبد الله (عليه السلام)، وصححه قال - عند قراءته -: أترى لهؤلاء مثل هذا «؟ رواه ابن أبي عمير عن حماد عنه.

---

[43]) في رجال البرقي هو أول كتاب صنفه الشيعة .

وقد كان كتاب الحلبي مشهورا، حتى قيل إنه أول كتاب صنفه الشيعة، وكان غيره يُعرّف به، فقد نجد في ترجمة محمد بن عبد الله الصفار في رجال النجاشي أن له نسخة كتاب تشبه كتاب الحلبي ؛ مبوبة كبيرة.

ومنهم: محمد بن علي بن أبي شعبة الحلبي أبو جعفر، وجه أصحابنا، وفقيههم، والثقة الذي لا يطعن عليه، هو وإخوته عبيد الله وعمران وعبد الأعلى. له كتاب التفسير. روى عنه صفوان، وكتاب مبوب في الحلال والحرام، روى عنه ابن مسكان .

ومنهم: «يحيى بن عمران بن على بن أبي شعبة الحلبي. روى عن أبي عبد الله، وأبي الحسن، ثقة، ثقة، صحيح الحديث، له كتاب روى عنه ابن أبي عمير.

ومنهم: أحمد بن عمر الحلبي[٤٤] وهو من أصحاب أبي

---

[44]) في الفوائد الرجالية ، رواية استفاد منها السيد بحر العلوم حسن حاله ، تروى عن أحمد بن عمر ، قال : دخلت على الرضا عليه السلام بمنى : فقلت له : جعلت فداك ، كنا أهل بيت غبطة وسرور ونعمة ، وأن الله تعالى قد أذهب ذلك كله حتى احتجنا الى من كان يحتاج إلينا ، فقال لي : يا أحمد ، ما أحسن حالك يا أحمد بن عمر ! ! فقلت له : جعلت فداك ، حالي ما أخبرتك ، فقال لي : يا أحمد أيسرك أنك على بعض ما عليه هؤلاء الجبارون ، ولك الدنيا مملوة ذهبا ؟ فقلت له : لا والله يا بن رسول الله ، فضحك ، ثم قال : ترجع من هاهنا الى خلف ، فمن أحسن حالا منك - وبيدك صناعة لا تبيعها بمل ء الدنيا ذهبا ، ألا أبشرك ؟ فقد سرني الله بك وبآبائك " فقال لي أبو جعفر عليه السلام : قول الله عز وجل : " وكان تحته كنز لهما " لوح من ذهب فيه مكتوب : " بسم الله

جعفر الثاني..

ومنهم غير هؤلاء..

إلا أن الذي يلفت النظر حقا هو ما ورد في شأن زوجة عبيد الله بن علي الحلبي، من كلام الإمام الصادق (عليه السلام) وأنها كانت أفقه منه، في حادثة معينة، ينقلها الكافي[٤٥] بسند معتبر عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن حماد، عن الحلبي قال: قلت لابي عبد الله ((عليه السلام)): جعلت فداك إني لما قضيت نسكي للعمرة أتيت أهلي ولم أقصر قال: عليك بدنة، قال: قلت: إني لما أردت ذلك منها ولم تكن قصرت امتنعت

الرحمن الرحيم لا إله الا الله ، محمد رسول الله ، عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، ومن يرى الدنيا وتغيرها بأهلها كيف يركن إليها ، وينبغي لمن عقل عن الله ألا يستبطئ الله في رزقه ، ولا يتهمه في قضائه " ثم قال : رضيت يا أحمد ؟ قال قلت عن الله تعالى وعنكم أهل البيت وفي سند الرواية خلف بن حماد ، والظاهر توثيقه ، وأبو سعيد الآدمي وهو سهل بن زياد ، وفيه قول بالتوثيق . وفي قول الرضا عليه السلام : " ألا أبشرك ، فقد سرني الله بك وبآبائك " دلالة ظاهرة على حسن حال أحمد بن عمر وأبيه وجده ، بل عمه علي أيضا بدخوله في " آبائه " تغليبا وترجيحا لظاهر الهيئة هنا على المادة . وليس سروره عليه السلام به وبآبائه إلا لاتباعهم أهل البيت وحسن عاقبتهم ووجود مثلهم في الشيعة . وفى قوله عليه السلام : - يا أحمد ، ما أحسن حالك ، يا أحمد ابن عمر ! ! " بصييغة التعجب - ما يدل على بلوغه الغاية في ذلك .

[45]) الكافي - الشيخ الكليني ج ٤ ص ٤٤١

فلما غلبتها قرضت بعض شعرها بأسنانها، فقال: رحمها الله كانت أفقه منك عليك بدنة وليس عليها شيء.

ومعنى الحديث واضح، وهو أنه لما قضى نسكه لعمرة التمتع حيث يحل له بعد التقصير ما كان قد حرم عليه بالإحرام، إلى أن يحرم مرة أخرى للحج.. أراد مجامعة زوجته ولم يكن هو ـ ولا هي قد قصرا ـ فامتنعت عليه ولم تقبل، لأنها لم تقصر بعدُ، فلما غلبها قرضت وقصت بعض شعرها بأسنانها، وكان ذلك منها تقصيرا، فحل لها ما كان حرم عليها.. بينما تحمل هو الكفارة..

ولنا أمام هذا الحديث وقفات متعددة:

١/ الوعي والمعرفة بالأحكام الدينية: إن مما يلاحظ على الكثير من النساء هو أنهن بعيدات عن معرفة الأحكام الشرعية، الخاصة بهن فضلا عن الأحكام التي يشتركون فيها مع الرجال.. ومن هنا تجد الكثيرات من هؤلاء في مواضع العبادة (الصلاة والحج.. وغيرها)، يخطئن الطريق الصحيح لأدائها.

إننا من خلال الحديث المذكور نلاحظ معرفة هذه المرأة الصالحة بالحكم الشرعي اللازم لها في ذلك الموقف.. وهي معرفة ليست بسيطة وإنما هي تنم عن حالة متطورة في فقه الحكم.. فإن تلك المرأة من جهة تدرك أنها مطالبة بأن تلتزم بتمكين زوجها عندما يطلبها وأنه ليس بوسعها التأخر بما دل على ذلك من الروايات

الكثيرة في هذا الباب [٤٦].

ومن جهة أخرى هي تعلم أنه ليس بوسعها أن تطيع زوجها في مثل هذا الأمر ما دامت لم تتحلل بالتقصير بعد.. وهنا تقع الكثيرات من النساء في مشاكل، كما نسمع عن أمر أزواجهن لهن بترك الحجاب مثلا، أو أنها تطلق، ويدور أمرها بين طاعة ربها، وطاعة زوجها.

لكنها تلتفت إلى أن المانع وهو عدم التقصير يمكن تجاوزه بنحو من الأنحاء وهو أن تقطع بعض شعرها بأسنانها.. فتفعل ذلك.

٢/ ثانية الوقفات: أن وصف الإمام (عليه السلام) إياها بأنها أفقه من عبيد الله وهو ذلك الفحل في المجال العلمي، حيث اعتبر كتابه أول ما صنف من كتب الشيعة، وكان حسب ما تقدم ذكره وجه الحلبيين وكبيرهم.. وهذا يعني أن بإمكان المرأة أن تصل في العلم الديني والشرعي إلى هذه المراتب العالية.

٣/ وثالثتها أن هذه الحادثة تبين لنا كيف أن على المرأة أن تحتاط لدينها قدر ما تستطيع، ولا يقبل منها قولها أن زوجها أمرها بغير الصواب، أو اضطرها إلى سلوكه..أو أنها تتبعه في كل ما يقول. وإنما قامت وهي المتشرعة المتدينة، باجتناب رغبة زوجها وهي على تلك

---

[46]) منها صحيحة محمد بن مسلم عن الباقر υ وقد سأله عن حق الزوج على زوجته ، قال : في حديث ... وأن لا تمنعه نفسها ولو كانت على ظهر قتب .

الحالة من الإحرام ـ ولما تخرج بعدُ منه ـ. لكي تضرب لبنات جنسها مثالا في الالتزام الديني القوي.

٤/ حبيبة البربرية

أم داود بن الحسن بن الحسن المجتبى (عليه السلام)

الإسلام دين الحرية والإنعتاق، فهو يأتي إلى الداخل الإنساني، ويضع عنه الإصر والأغلال، ويأتي إلى الخارج ويدفعه لرفض حكم الطاغوت، وإماتة الظلم..بل جوهر الدين وأصله واختصاره في الشهادتين وأولاهما تنفي عنه الخضوع لأي قوة غاشمة ظالمة، فلا خضوع إلا لله، و(لا إله إلا الله).وفي الطريق إلى ذلك تطوي التعاليم الإسلامية مشوارا تربويا طويلا مع الإنسان المسلم حتى يحقق لنفسه تلك الحياة الحرة الفاضلة المتعالية على عبودية الشهوات، ولمجتمعه الوضع الأمثل المنعتق من ضغط الظالمين واستعبادهم.

وعجيب أن دينا كهذا يقوم في أساسه على هذا المبدأ كيف تحول في عصور متأخرة إلى سوط، وقيود؟ وعجيب كيف أصبح باسم الإسلام تهان كرامة الإنسان المسلم وتصادر حريته؟ وعجيب كيف عادت الجاهلية في ثوب (إسلامي)؟ فإذا بحكام المسلمين يملؤون البلاد سجونا وقبورا [٤٧]، بدل أن يحولوها للناس دورا وزهورا!!.. ومع أننا لا نجد في تشريعات الإسلام حديثا عن السجون إلا في موارد نادرة جدا، لا تتجاوز أصابع اليدين وتلك أيضا من أجل حماية الحرية من المجرمين، فإذا ببلاد الإسلام تمتلئ بهذه الظاهرة السيئة، وغدت طبقة

---

[47] / ليت أن الأمر اقتصر على السابق بل نقلت الصحف عن بعض البلاد الإسلامية أنه قد أطلق ـ بعفو ـ من سجنائها خمسون ألف رجل !! دقق في الرقم جيدا ! هذا من عفي عنهم فكم عدد الباقين ؟

غير قليلة تبني حياتها وعيشها على أساس اعتقال حرية الناس، و تكسب (رزقها) من الكرباج والتعذيب!! هذا كله في بلاد الإسلام الذي جاء أساسه العقيدي على تحرير الإنسان من غير عبودية الله.

ولئن كان الانحراف في أمور كثيرة خطيرا، إلا أنه في هذه الجهة يكتسب خطورة خاصة، ذلك أنه يتعرض إلى حياة الناس فيعطلها بإفقاد العوائل كاسبها وراعيها، مما ينتج عنه مفاسد أخلاقية واجتماعية لا تحصى.

وربما يندر أن يذكر التاريخ صورا من السجن في أيام النبي وما بعده من الخلفاء ـ إلا نادرا ولم يكن لفترة طويلة ـ ولكن عندما يصل الأمر إلى أيام بني أمية نلاحظ أن مؤسسة السجن أصبحت شيئا رسميا، بل حتى النساء صرن يسجن للضغط على أزواجهن.. وأصبح أحد الأسلحة في مواجهة من يعترض، ولربما تم قتله في سجنه.

وجاء بنو العباس (ويا ليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار)، فإذا بهؤلاء يُنسون من سبقهم، ويبيضون بسواد أعمالهم سواد صحيفة سابقيهم، فأصبح السجن متعدد المهام فهو وقاية، وحماية وعقوبة، ووسيلة قتل، بل مصدر متعة أحيانا.. وظل بنو علي والزهراء، في تلك الفترات لا يخرج أحدهم من السجن إلا ليدخله غيره، ولكم سمعت القيود والحديد، مناجاة تلكم الصفوة من الأمة في جوف الليل.. لاسيما في عهد سيء الذكر المنصور الدوانيقي، الذي قد أترع حقدا، وبخلا، وغدرا.. فهذا عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط

قد قتل في سجن الهاشمية وعمره خمسة وسبعون عاما، وذاك أخوه الحسن المثلث كذلك مات في نفس سنته في نفس السجن، وإبراهيم أخوهم الثالث كذلك، وعلي بن الحسن المثلث الذي سجن في سجن المطبق فلم يكونوا يعرفون أوقات الصلاة إلا بأجزاء يقرؤها، وينقل المؤرخون صورا عجيبة عن تلك السجون وما فيها، فقد (حبسوا في سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل وكانوا يتوضؤن في مواضعهم فاشتدت عليهم الرائحة، فاحتال بعض مواليهم حتى أدخل إليهم شيئا من الغالية فكانوا يدفعون بشمها تلك الروائح المنتنة، وكان الورم يبدو في أقدامهم فلا يزال يرتفع حتى يبلغ الفؤاد فيموت صاحبه.. وذكر من وجه آخر أنهم لما حبسوا في هذا الموضع أشكل عليهم أوقات الصلاة فجزؤوا القرآن خمسة أجزاء، فكانوا يصلون الصلاة على فراغ كلِّ واحد منهم من حزبه، وكان عدد من بقي منهم خمسة، فمات إسماعيل بن الحسن، فترك عندهم حتى جَيَّف..) [٤٨] وعن بطولة هؤلاء الأطياب، فقد ذكروا أن الأقياد التي كانوا يقيدونهم بها قد اتسعت (لحصول الضعف في أرجلهم من التجويع) فكانوا يخرجون أرجلهم من أقيادهم فإذا جاء الحرس أعادوها إلا عليا فإنه كان لا يفعل ذلك ويقول: والله لا اخلعه أبدا حتى أجتمع أنا وابو جعفر عند الله فيسأله لم قيدني به!! ولو أردنا التتبع لطالت

---

[48] / مروج الذهب للمسعودي.

القائمة. [٤٩]

وكانت هذه الاعتقالات تترك البيوت والعوائل في حال لا تحمد عليها، فالأمهات تشتعل بنار العواطف والقلق، والأبناء تكوى بهجير الانتظار وخوف الضياع، ودع عنك حديث الحاجة المادية والمعاشية فإنه أهون الأمور بقياسه لغيره..

تلك الحال هي التي نتصورها عند أم داود بن الحسن بن الحسن السبط(عليه السلام)، وقد سجن مع ابنيه سليمان وعبد الله في سجن الهاشمية المذكور، فإنها وهي تسمع ما يذكر وينقل عن أحوالهم في السجون كانت تتوقد نار ألمها، وحرارة شجوها، وإذا كان البعض يلجأ في مثل هذه القضايا إلى استعطاف الحاكم الذي يلذ له إذلال الإنسان، ويشبع عقدةَ نقصه، ويملأ بئرَ حقده توسلُ الآخرين إليه، فإن هذه المرأة الواعية، لجأت إلى الله سبحانه وتعالى، واستنجدت بولي الله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام)، طالبة منه ـ وهو باب الله الذي منه يؤتى ـ أن يدعو الله في نجاة ابنها من ذلك السجن الرهيب.

{**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ** }، ها هي امرأة سلقتها المعاناة على نار الافتقاد لابنها، ولكنها كانت أكبر من أن تخضع لغير الله بالرغم من مرارة الألم، وفي ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.. إن الثبات على الطريق المستقيم قد يقتضي ـ بل القاعدة فيه

---

[49] / للمراجعة ينظر مقاتل الطالبيين.

ذلك ـ أن يُسلب ماله حينا، ويُسجن عزيزه حينا آخر، وهذا هو جزء من الثمن..ولكن (أكثرهم لا يعلمون) فيريدون من الإيمان سمعته وشخصيته والشهرة بين الناس أما إذا تطلب منهم ثمنا في مقابل الجنة التي عرضها السماوات والأرض فإنهم حينئذ يخفون الصبر ويبدون الجزع.. بقي ذكرها عطرا يفوح في سماء المناجاة والدعاء والتقرب، وارتبط ذكر اسمها، وقد لا نعرف شيئا عن مناحي حياتها الأخرى، لكن اسمها ارتبط بأفضل ما يمكن الارتباط به، وهو ذكر الله في شهر الله الحرام وهو شهر رجب الأصب.. بينما ارتبط اسم أولئك الطغاة والحاكمين العباسيين بالقتل والسجن، والتعذيب، والسادية، فارتطموا في عذاب الله يوم القيامة، وفي سوء الذكر في هذه الدنيا.. لو حسب العاقل ما الذي خسرت تلك المرأة؟ وماذا ربح هؤلاء؟؟ (خسيس عيش كالمرعى الوبيل)، وأياما قصيرة مرت سريعا، ليواجه الطرفان المحكمة الالهية يوم { **تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ** }. والعجيب أن من سواهم لا يعتبرون بأمرهم ولا يفهمون الخطاب الخالد (عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه)!

ماذا سيلاقي هؤلاء يوم القيامة {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} فإذا بالحاكم عارٍ عن الأبهة، والأنصار، والزيف، وجنود المخابرات، ليس معه إلا الظلمات فـ (الظلم ظلمات يوم القيامة) {وَمَنْ

لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ }.

وإذا كان البعض يتصور أن مقدرات الأمور في يده، وأنها لا تجري إلا من تحت أمره، فهو واهم، فإن الأمور بيد الله، وإذا أراد الله أمرا فلا راد لأمره ولكن أكثرهم لا يعلمون. وإن كانوا يستطيعون الإيذاء لو لم يحسنوا أي شيء غيره. يهتكون ستر المؤمنين، ويلعبون بمشاعر الأمهات، ويؤرقون عيون الآباء..

وكان أن استجاب الإمام لطلبها، وعلمها دعاء هو المعروف بدعاء أم داود والمستحب في شهر رجب، واستجاب الله لدعائها وتوسل الإمام في فكاك ابنها، وأطلق سراح داود ابنها وابنيه. ولنترك السيد بن طاووس يتحدث عن الدعاء وعن قصته كما أوردها في كتابه إقبال الأعمال، (وطاووس الذي ينسب إليه رضي الدين علي بن موسى هو إسحاق بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن):

اعلم أن هذا الدعاء الذي نذكره في هذا الفصل دعاء عظيم الفضل معروف بدعاء أم داود و هي جدتنا الصالحة المعروفة بأم خالد البربرية أم جدنا داود بن الحسن بن الحسن ابن مولانا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ع و كان خليفة ذلك الوقت قد خافه على خلافته ثم ظهر له براءة ساحته فأطلقه من دون آل أبي طالب الذين قبض عليهم و سيأتي شرح حال حبس [قبض] ولدها جدنا داود و حديث الدعاء الذي استجابه الله جل جلاله منها رضي الله عنها و جمع شملها به بعد بُعد العهود فأما حديث أنها أم داود جدنا و أن اسمها أم خالد

البربرية كمل الله لها مراضيه الإلهية، فإنه معلوم عند العلماء و متواتر بين الفضلاء منهم أبو نصر سهل بن عبد الله البخاري النسابة فقال في كتاب سر أنساب العلويين ما هذا لفظه و أبو سليمان داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) أمه أم ولد تدعى أم خالد البربرية أقول و كتب الأنساب و غيرها من الطرق العلية قد تضمنت وصف ذلك على الوجوه المرضية.

وأما حديث أن جدتنا هذه أم داود و هي صاحبة دعاء يوم النصف من رجب فهو أيضا من الأمور المعلومات عند العارفين بالأنساب و الروايات و لكنا نذكر منه كلمات عن أفضل علماء الأنساب في زمانه علي بن محمد العمري تغمده الله بغفرانه فقال في الكتاب المبسوط في الأنساب ما هذا لفظه وولد داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أمه أم ولد و كانت امرأة صالحة و إليها ينسب دعاء أم داود قال شيخ الشرف في كتاب تشجير تهذيب الإنسان أيضا و نقلته من خطه عند ذكر جدنا داود ما هذا لفظه لأم ولد إليها ينسب دعاء أم داود و قال ابن ميمون النسابة الواسطي في مشجره إلى ذكر جدتنا أم داود أنها يكنى أم خالد إليها يعزى دعاء أم داود و أما رواية هذا دعاء يوم النصف من رجب فإننا رويناه عن خلق كثير قد تضمن ذكر أسمائهم كتاب الإجازات فيما يخصني من الإجازات بطرقهم المؤتلفة و المختلفة و هو دعاء جليل مشهور بين أهل الروايات و قد صار موسما عظيما في يوم النصف من رجب معروفا بالإجابات و تفريج الكربات و وجدت في بعض طرق من

يرويه زيادات و سوف أذكر أكمل روايته احتياطا للظفر بفائدته.

فمن الرواة من يرفعه إلى مولانا موسى بن جعفر الكاظم ومنهم من يرويه عن أم داود جدتنا رضوان الله عليها و عليه فمن الروايات في ذلك: أن المنصور لما حبس عبد الله بن الحسن و جماعة من آل أبي طالب و قتل ولديه محمدا و إبراهيم أخذ داود بن الحسن بن الحسن ـ و هو ابن داية أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) لأن أم داود أرضعت الصادق منها بلبن ولدها داود ـ وحمله مكبلا بالحديد قالت أم داود: فغاب عني حينا بالعراق و لم أسمع له خبرا و لم أزل أدعو و أتضرع إلى الله جل اسمه و أسأل إخواني من أهل الديانة و الجد و الاجتهاد أن يدعوا الله تعالى لي و أنا في ذلك كله لا أرى في دعائي الإجابة. فدخلت على أبي عبد الله جعفر بن محمد يوما أعوده من علة وجدها فسألته عن حاله و دعوت له.

فقال لي: يا أم داود ما فعل داود؟ ـ وكنت قد أرضعته بلبنه ـ.

فقلت: يا سيدي و أين داود و قد فارقني منذ مدة طويلة و هو محبوس بالعراق!

فقال: وأين أنت عن دعاء الاستفتاح و هو الدعاء الذي تفتح له أبواب السماء و يلقى صاحبه الإجابة من ساعته و ليس لصاحبه عند الله تعالى جزاء إلا الجنة؟

فقلت له: كيف ذلك يا ابن الصادقين؟

فقال لي: يا أم داود قد دنا الشهر الحرام العظيم شهر رجب و هو شهر مسموع فيه الدعاء شهر الله الأصم فصومي الثلاثة الأيام البيض و هو يوم الثالث عشر و الرابع عشر و الخامس عشر و اغتسلي في يوم [اليوم] الخامس عشر وقت الزوال و صلى الزوال ثماني ركعات (وفي إحدى الروايات و تحسنين قنوتهن و ركوعهن و سجودهن) ثم صلي الظهر و تركعين بعد الظهر و تقولين بعد الركعتين يا قاضي حوائج الطالبين [السائلين] مائة مرة ثم تصلين بعد ذلك ثماني ركعات و في رواية أخرى تقرئين في كل ركعة يعني من نوافل العصر بعد الفاتحة ثلاث مرات قل هو الله أحد و سورة الكوثر مرة ثم صلي العصر و لتكن صلاتك في ثوب نظيف و اجتهدي أن لا يدخل عليك أحد يكلمك.

و في رواية وإذا فرغت من العصر فالبسي أطهر ثيابك و اجلسي في بيت نظيف على حصير نظيف و اجتهدي أن لا يدخل عليك أحد يشغلك ثم استقبلي القبلة و اقرئي الحمد مائة مرة و قل هو الله أحد مائة و آية الكرسي عشر مرات ثم اقرئي سورة الأنعام و بني إسرائيل و سورة الكهف و لقمان و يس و الصافات و حم السجدة و حمعسق و حم الدخان و الفتح و الواقعة و سورة الملك و ن و القلم و إذا السماء انشقت و ما بعدها إلى آخر القرآن و إن لم تحسني ذلك و لم تحسني قراءته من المصحف كررت قل هو الله أحد ألف مرة.

قال شيخنا المفيد إذا لم تحسن قراءة السورة المخصوصة في يوم النصف من رجب أو لم تطق قراءة

ذلك فلتقرأ الحمد مائة مرة و آية الكرسي عشر مرات ثم تقرأ الإخلاص ألف مرة و أقول و رأيت في بعض الروايات و يحتمل أن يكون ذلك لأهل الضرورات أو من يكون على حال سفر أو في شيء من المهمات فيكفيه قراءة قل هو الله أحد مائة مرة ثم قال الصادق (عليه السلام) في إحدى الروايات فإذا فرغت من ذلك و أنت مستقبلة القبلة تقولين:

بسم الله الرحمن الرحيم صدق الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ذو الجلال و الإكرام الرحمن الرحيم الحليم [الحكيم] الكريم الذي ليس كمثله شيء و هو السميع البصير العليم الخبير شهد الله أنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام و بلغت رسله الكرام و أنا على ذلك من الشاهدين اللهم لك الحمد و لك المجد و لك العز و لك الفخر و لك القهر و لك النعمة و لك العظمة و لك الرحمة و لك المهابة و لك السلطان و لك البهاء و لك الامتنان و لك التسبيح و لك التقديس و لك التهليل و لك التكبير و لك ما يرى و لك ما لا يرى و لك ما فوق السماوات العلى و لك ما تحت الثرى و لك الأرضون السفلى و لك الآخرة و الأولى و لك ما ترضى به من الثناء و الحمد و الشكر و النعماء.

اللهم صلِّ على جبرئيل أمينك على وحيك و القوي على أمرك و المطاع في سماواتك و محال كراماتك [المتحمل لكلماتك] الناصر لأنبيائك [لأوليائك] المدمر لأعدائك.

اللهم صلِّ على ميكائيل ملك رحمتك و المخلوق لرأفتك و المستغفر المعين لأهل طاعتك اللهم صل على إسرافيل حامل [أحد حملة] عرشك و صاحب الصور المنتظر لأمرك و الوجل المشفق من خيفتك اللهم صل على عزرائيل ملك الرحمة الموكل على عبيدك و إمائك المطيع في أرضك و سمائك قابض أرواح عبادك [جميع خلقك] بأمرك اللهم صل على حملة العرش الطاهرين و على ملائكة الذكر أهل التامين على دعاء المؤمنين و على السفرة الكرام البررة الطيبين و على ملائكتك الكرام الكاتبين و على ملائكة الجنان و خزنة النيران و ملك الموت و الأعوان يا ذا الجلال و الإكرام.

اللهم صلِّ على أبينا آدم بديع فطرتك الذي كرمته [أكرمته] لسجود ملائكتك و أبحته جنتك اللهم صل على أمنا حواء المطهرة من الرجس المصفاة من الدنس المفضلة من الإنس المترددة بين محال القدس وصل على هابيل و شيث و إدريس و نوح و هود و صالح و إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب و يوسف و الأسباط و لوط و شعيب و أيوب و موسى و هارون و يوشع و ميشا و الخضر و ذي القرنين و يونس و إلياس و اليسع و ذي الكفل و طالوت و داود و سليمان [وآصف] و زكريا و شعيا و يحيى و تورخ و متى و أرميا و حيقوق و دانيال و عزير و عيسى و شمعون و جرجيس و الحواريين و الأتباع و خالد و حنظلة و لقمان.

اللهم صلِّ على محمد و آل محمد و بارك على محمد و آل محمد كما صليت و رحمت و ترحمت و باركت

على إبراهيم و آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم صل على الأوصياء و السعداء و الشهداء و أئمة الهدى.

اللهم صل على الأبدال و الأوتاد و السياح و العباد و المخلصين و الزهاد و أهل الجد و الاجتهاد و اخصص محمدا و أهل بيته بأفضل صلواتك و أجزل كراماتك و بلغ روحه و جسده مني تحية و سلاما و زده فضلا و شرفا و كرما حتى تبلغه أعلى درجات أهل الشرف من النبيين و المرسلين و الأفاضل المقربين اللهم و صل على من سميت و من لم أسم من ملائكتك و أنبيائك و رسلك و أهل طاعتك و أوصل صلواتي إليهم و إلى أرواحهم [و أجسادهم] و اجعلهم إخواني فيك و أعواني على دعائك [طاعتك].

اللهم إني أستشفع بك إليك و بكرمك إلى كرمك و بجودك إلى جودك و برحمتك إلى رحمتك و بأهل طاعتك إليك و أسألك اللهم [بكرامتك] بكل ما سألك به أحد منهم من مسألة شريفة مسموعة غير مردودة و بما دعوك به من دعوة مجابة غير مخيبة يا الله يا رحمان يا رحيم يا حليم يا كريم يا عظيم يا جليل يا منيل يا جميل يا كفيل يا وكيل يا معيل يا مجير يا خبير يا منير يا مبير يا منيع يا مديل يا محيل يا كبير يا قدير يا بصير يا شكور يا بر يا طهر يا طاهر يا قاهر يا ظاهر يا باطن يا ساتر يا محيط يا مقتدر يا حفيظ يا مجير [متجبر] يا قريب يا ودود يا حميد يا مجيد يا مبدئ يا معيد يا شهيد يا محسن يا مجمل يا منعم يا مفضل يا قابض يا باسط يا هادي يا مرسل يا مرشد يا مسدد يا معطي يا مانع يا دافع يا رافع يا باقي يا

واقي يا خلاق يا وهاب يا تواب يا فتاح يا نفاح يا مرتاح يا من بيده كل مفتاح يا نفاع يا رؤوف يا عطوف يا كافي يا شافي

يا معافي يا مكافي يا وفي يا مهيمن يا عزيز يا جبار يا متكبر يا سلام يا مؤمن يا أحد يا صمد يا نور يا مدبر يا فرد يا وتر يا قدوس يا ناصر يا مونس يا باعث يا وارث يا عالم يا حاكم يا بارئ [يا بادئ] يا متعالي يا مصور يا مسلم يا متحبب يا قائم يا دائم يا عليم يا حكيم يا جواد يا بارئ يا بار يا سار يا عدل يا فاضل يا ديان يا حنان يا منان يا سميع يا بديع يا خفير يا مغير يا مفني [يا مغني] يا ناشر يا غافر يا قديم يا كريم يا مسهل يا ميسر يا مميت يا محيي يا رافع يا نافع يا رازق يا مقتدر يا مسبب يا مغيث يا مغني يا مقني يا خالق يا راصد يا واحد يا حاضر يا جابر يا حافظ [حفيظ] يا شديد يا غياث يا عائذ يا قابض (و في بعض الروايات) يا منيب يا مبين يا طاهر [يا ظاهر] يا مجيب يا متفضل يا مستجيب يا عادل يا بصير يا مؤمل يا مسدي [مهدد] يا أواب يا وافي يا راشد يا ملك يا رب يا مذل يا معز يا ماجد يا رازق يا ولي يا فاضل يا سبحان يا من على فاستعلى فكان بالمنظر الأعلى يا من قرب فدنى و بعد فنأى و علم السر و أخفى يا من إليه التدبير و له المقادير يا من العسير عليه سهل يسير و يا من هو على ما يشاء قدير يا مرسل الرياح يا فالق الإصباح يا باعث الأرواح يا ذا الجود [و الطول] و السماح يا راد ما قد فات يا ناشر الأموات يا جامع الشتات يا رازق من يشاء بغير حساب و يا فاعل ما يشاء كيف

[ما] يشاء يا ذا الجلال و الإكرام يا حي يا قيوم يا حي حين لا حي يا حي يا محيي الموتى يا حي لا إله إلا أنت بديع السماوات و الأرض.

يا إلهي صلِّ على محمد و آل محمد و ارحم محمدا و آل محمد و بارك على محمد و آل محمد كما صليت و باركت و رحمت و ترحمت على إبراهيم و آل إبراهيم إنك حميد مجيد و ارحم ذلي و فاقتي و فقري و انفرادي و وحدتي و خضوعي بين يديك و اعتمادي عليك و تضرعي إليك أدعوك دعاء الخاضع الذليل الخاشع الخائف المشفق البائس المهين الحقير الجائع الفقير العائذ المستجير المقر بذنبه المستغفر منه المستكين لربه دعاء من أسلمته ثقته و رفضته أحبته و عظمت فجيعته دعاء حرق حزين ضعيف مهين بائس مستكين [مسكين] بك مستجيرا.

اللهم و أسألك بأنك مليك و إنك ما تشاء من أمر يكون [يكن] و إنك على ما تشاء قدير و أسألك بحرمة هذا الشهر الحرام و البيت الحرام و البلد الحرام و الركن و المقام و المشاعر العظام و بحق نبيك محمد عليه و آله السلام يا من وهب لآدم شيثا و لإبراهيم إسماعيل و إسحاق و يا من رد يوسف على يعقوب و يا من كشف بعد البلاء ضر أيوب و يا راد موسى على أمه و أنت زائد الخضر في علمه و يا من وهب لداود سليمان و لزكريا يحيى و لمريم عيسى يا حافظ بنت شعيب و يا كافل ولد أم موسى عن والدته أسألك أن تصلي على محمد و آل محمد و أن تغفر لي ذنوبي كلها و تجيرني من عذابك و توجب

لـي رضـوانك و أمانـك و إحـسانك و غفرانـك و جنانـك و أسألك أن تفك عني كل حلقة و ضيق [حلقة ضيق] بينـي و بين من يؤذيني و تفتح لي كل باب و تلين لي كل صعب و تسهل لي كل عسير و تخرس عني كل ناطق بشر [بسوء] و تكف عنـي كل بـاغ و تكبت عنـي [لـي] كل عـدو لـي و حاسد و تمنع عني كل ظالم و تكفيني كل عائق يحول بينـي و بـين حـاجتي و إخـواني مـن المـؤمنين و المؤمنـات و والـدي و يحـاول أن يفـرق بينـي و بـين طاعتـك و يثبطنـي عـن عبادتـك يـا مـن ألجـم الجـن المتمـردين و قهـر عتـاة الشياطين و أذل رقاب المتجبرين و رد كيد المتسلطين عن المستضعفين أسألك بقدرتك علـى مـا تـشاء و تـسهيلك لمـا تـشاء كيـف تـشاء أن تجعـل [تعجـل] قـضاء حـاجتي فيمـا تشاء.

ثم اسجدي على الأرض و عفري خديك علـى الأرض و قولـي اللهم لك سجدت و بك آمنت فارحم ذلـي و فـاقتي و اجتهـادي و تـضرعي و مـسكنتي و فقـري إليـك يـا رب و اجتهدي أن تسح عيناك و لو بقدر رأس الذبابة دموعـا فـإن ذلك [من] علامة [علامات] الإجابة.

روايـة أخـرى فـي سجدة هذا الـدعاء مـا هذا لفظـه ثـم اسـجدي علـى الأرض و عفـري خـديك و قـولي اللهـم لـك سـجدت و بـك آمنـت فـارحم ذلـي و خـضوعي بـين يـديك و فقــري و فــاقتي إليــك و ارحــم انفــرادي و خــشوعي و اجتهادي بين يـديك و تـوكلي عليـك اللهـم بـك أسـتفتح و بـك أسـتنجح و بمحمـد عبـدك و رسـولك [و آلـه] أتوجـه إليـك اللهم سهل لي كل حزونتي [حزونـة] و ذلل لي كل صعوبة

و أعطني من الخير أكثر مما أرجو و عافني من الشر و اصرف عني السوء ثم قولي مائة مرة يا قاضي حوائج الطالبين اقض حاجتي بلطفك يا خفي الألطاف قال جعفر الصادق ع و اجتهدي أن تسح عيناك و لو مقدار رأس الإبرة [ذبابة] دموعا فإنه علامة إجابة هذا الدعاء بحرقة القلب و انسكاب العبرة و احتفظي بما علمتك رواية أخرى في سجدة هذا الدعاء ما هذا لفظها ثم اسجدي على الأرض و عفري خديك ثم قولي في سجودك اللهم لك سجدت و لك صليت و بك آمنت و عليك توكلت و ارحم ذلي و فاقتي و خضوعي و ذلي و انفرادي و مسكنتي و فقري و كبوتي لوجهك و إليك يا رب يا رب و اجتهدي أن تسح عيناك و لو بقدر رأس ذباب دموعا فإن آية الإجابة لهذا الدعاء حرقة القلب و انسكاب العبرة و احفظي ما علمتك و احذري أن تعلميه من يدعو به لباطل فإن فيه اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب و إذا سئل به أعطى فلو أن السماوات و الأرض كانتا رتقا و البحار من دونهما كان ذلك عند الله دون حاجتك لسهل الله تعالى الوصول إلى ذلك و لو أن الجن و الإنس أعداؤك لكفاك الله مئونتهم و ذلل [الله] رقابهم[٥٠]

أقول فإذا علمت ما ذكرنا من هذا الاحتياطات للعبادات و الاستظهار في الروايات و السجدات و لم يسمح عقلك بالخضوع و لا قلبك بالخشوع و لا عينك بالدموع فاشتغل بالبكاء على قساوة قلبك و غفلتك عن

---

50 / اقبال الأعمال طبعة الاعلمي ـ ١٦٧)

ربك و ما أحاط بك من ذنبك عن الطمع في قضاء حاجتك التي ذكرتها في دعواتك و بادر رحمك الله إلى معالجة ذاتك و تحصيل شفائك فأنت مدنف المرض على شفاء و تب من كل ذنب و اطلب العفو ممن عودك أنك إذا طلبت العفو منه عفا.

أقول و نحن نذكر تمام رواية أم [جدنا] داود رضوان الله عليه ليعلم كيفية تفصيل إحسان الله جل جلاله إليها فلا تقنع لنفسك أن تكون معاملتك لله جل جلاله و إخلاصك له و اختصاصك به و التوصل في الظفر برحمته و إجابته دون امرأة و النساء رعايا للعقلاء و الرجال قوامون على النساء و قبيح بالرئيس أن يكون دون واحد من رعيته

فقالت أم جدنا داود رضوان الله عليه فكتبت هذا الدعاء و انصرفت و دخل شهر رجب و فعلت مثل ما أمرني به تعني الصادق (عليه السلام) ثم رقدت تلك الليلة فلما كان في آخر الليل رأيت محمدا (صلى الله عليه وآله) و كل من صليت عليهم من الملائكة و النبيين و محمد (صلى الله عليه وآله) و عليهم يقول [يقولون] يا أم داود أبشري و كل من ترين من إخوانك [أخواتك] و في رواية أخرى من أعوانك و إخوانك و كلهم يشفعون لك و يبشرونك بنجح حاجتك و أبشري فإن الله تعالى يحفظك و يحفظ ولدك و يرده عليك.

قالت فانتبهت فما لبثت إلا قدر مسافة الطريق من العراق إلى المدينة للراكب المجد المسرع العجل حتى قدم علي داود فسألته عن حاله فقال إني كنت محبوسا في أضيق حبس و أثقل حديد و في رواية و أثقل قيد إلى يوم

النصف من رجب فلما كان الليل رأيت في منامي كان الأرض قد قبضت لي فرأيتك على حصير صلاتك و حولك رجال رءوسهم في السماء و أرجلهم في الأرض يسبحون الله تعالى حولك فقال لي قائل منهم حسن الوجه نظيف النور طيب الرائحة خلت جدي رسول الله ص أبشر يا ابن العجوزة الصالحة فقد استجاب الله لأمك فيك دعائها فانتبهت و رسل المنصور على الباب فأدخلت عليه في جوف الليل فأمر بفك الحديد عني و الإحسان إلي و أمر لي بعشرة آلاف درهم و حملت على نجيب و سوقت بأشد السير و أسرعه حتى دخلت المدينة قالت أم داود فمضيت به إلى أبي عبد الله [الصادق] فقال (عليه السلام) إن المنصور رأى أمير المؤمنين عليا (عليه السلام) في المنام يقول له أطلق ولدي و إلا ألقيتك في النار و رأى كأن تحت قدميه النار فاستيقظ و قد سقط في يديه فأطلقك يا داود قالت أم داود فقلت لأبي عبد الله يا سيدي أيدعى بهذا الدعاء في غير رجب قال نعم يوم عرفة و إن وافق ذلك يوم الجمعة لم يفرغ صاحبه منه حتى يغفر الله له و في كل شهر إذا أراد ذلك صام الأيام البيض و دعا به في آخرها كما وصفت في روايتين قال نعم في يوم عرفة و في كل يوم دعا فإن الله يجيب إن شاء الله..

ثم إن السيد بن طاووس قد عقد فصلا للدروس المستفادة من القضية المذكورة فقال:

فصل فيما نذكره مما اشتمل عليه دعاء أم داود شرفها الله بالعنايات من الآيات الطاهرات.

اعلم أن هذه الحكاية المشهورة و الضراعة المبرورة

قد اشتملت على عدة آيات و معجزات و كرامات و عنايات:

ـ فمن الآيات ما ظهر من سرعة الإجابة على بساط الإنابة فهو في حكم الآية الباهرة لقدرة الله جل جلاله القاهرة و المعجزة لمحمد ص و تصديق رسالته الطاهرة.

ـ و من المعجزات أن سرعة إجابتها على مرادها من حاجتها فيه تصديق للقرآن الشريف بإجابة الداعي إذا دعاه و تصديق رسوله (صلى الله عليه وآله) الذي أتى به القرآن و وعاه و رعاه و من المعجزات تعريف الصادق عن الله جل جلاله بأسرار الدعاء المشار إليه قبل إظهار أسراره و تصديق الله جل جلاله بما تفضل به سبحانه من مباره و مساره.

ـ و من العنايات بجدنا داود و أمه جدتنا رضوان الله جل جلاله عليهما و ظهور توفيقهما و العناية بنا بطريقهما تعريف جدنا داود و هو بالعراق جواب دعاء والدته بالمدينة الشريفة في سرعة تلك الأوقات اللطيفة.

ـ و من العنايات بها أن هذا السر الإلهي المودع في هذا الاستفتاح كان مصونا عند أهل الفلاح حتى وجد مولانا الصادق و أودعه أمنا أم داود رضوان الله عليها و عليه و وجدها أهلا لإيداع هذا السر لصدرها و برهانا على رفع قدرها و آية في صلاح أمرها و جبر كسرها و من العنايات بها أن الله جل جلاله جعل جدتنا أم داود أهلا أن يظهر آياته على يديها و ينسب معجزات رسوله (صلى الله عليه وآله) إليها.

ـ و من العنايات بها أن أم موسى (عليه السلام)

خصها الله جل جلاله بالوحي إليها و وقفها من سلامة ولدها و الشفقة عليه و عليها و قال جل جلاله {إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها }و ما كانت لما ألقته في البحر قد علمت أنه حصل ولدها في يد الأعداء بل في وديعة ربها و أم داود لم تكن ممن يحصل لها الأنس بالوحي إليها و لا الثقة بسلامة ولدها و إعادته عليها و ربط الله جل جلاله على قلبها عند ظفر الأعداء بولدها و هو واحدها و قطعة كبدها

أقول و أم موسى (عليه السلام) أفضل من أم داود في غير هذه العنايات و أبلغ في السعادات لتخصيص الله جل جلاله بالوحي إليها و لقبولها و إلقاء ولدها إلى هول البحر بيديها و لأجل ولادتها لموسى (عليه السلام) العظيم الشأن و صيانتها لأسرار الله تعالى في السر و الإعلان.

- و من العنايات بها أنها لم تتشبث في تخليص ولدها العزيز عليها بأهل الدنيا المعظمين و لا بالذل للملوك و السلاطين و قنعت بالله رب العالمين و من العنايات بولدها و بها قول مولانا علي (عليه السلام) عن جدنا داود في المنام أنه ولده و من العنايات به و بها أنه قد كان مع جدنا داود جماعة في الحبس من قومه صالحين فاختصه بهذه الشفاعة من دونهم أجمعين.

ـ و من العنايات بها قول النبي ص لولدها يا ابن العجوزة الصالحة و هذه شهادة منه (صلى الله عليه وآله) لها بالصلاح و سعادة صريحة واضحة راجحة و ما قال بعد وفاته فهو كما قال في حياته و من العنايات بها ما أراها في المنام عقيب الدعاء بغير إهمال من صورة

الملائكـة و الأنبيـاء و الأوليـاء و مـن بـشرها مـنهم بإجابـة الدعاء و الابتهـال علـى وجـه مـا عرفـت أنـه جـرى لغيرهـا مثلـه عنـد مثـل تلـك الحـال و مـن العنايـات بهـا أن ابتـداء ظهور هذه السنة الحسنة بطريقها يقتضي أن كل من عمل بها و سلك سبيل توفيقهـا ثـواب عملـه فـي ميزانهـا و رافعـا من علو شأنها.

ــ و مـن العنايـات بهـا أن كـل حاجـة انقـضت بهـذه الدعوات مع استمرار الأوقـات فإنهـا مـن جملـة الآيـات لله جـل جلالـه و المعجـزات لرسـوله ص و الكرامـات للصادقين عليهم أفضل الصلوات فنور هذه المنقبة باق مـع بقاء العاملين بها و الموفقين لها.

ـ و من العنايات بها أنه قد ظهر أدعيـة و سـنن مـأثورة على يد أمم كثيرة و ذوي همم صـغيرة و كبيـرة و مـع ذلـك فلـم يـستمر الاهتمـام بالعمـل بهـا و القبـول لهـا كمـا اسـتمر العمل بهذا الدعاء على اختلاف الأوقـات إلـى هـذه الغايـات و مـن العنايـات بهـا أن الملـوك الـذين أطفئـوا أنـوارا كثيـرة من الأشرار و الأخيار لم يمكنهم الله جل جلالـه مـن إطفـاء أسـرار هـذا الـدعاء و وفـق لـه مـن ينقلـه و يعمـل بـه و لا يخاف كثرة الأعداء..

٥/ سعيدة مولاة[51] الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)

كانت موجودة إلى سنة ٢٠٣ هـ

منهجان يلاحظ المتأمل آثارهما في فهم الإسلام وتطبيقه.الأول: منهج الحزب القرشي، والآخر منهج أهل البيت(عليهم السلام). يمكن للمتأمل أن يلاحظ أن الحزب القرشي لم يستطع أن يتفاعل بالكامل مع كل تشريعات الإسلام، وإنما حاول أن يطوع بعضها بما ينسجم مع أوضاعه، وأن يؤخر بعضها الآخر، أو يصبغه بالصبغة التي تلائمه.. ولعل أول من أشار إلى وجود هذا الحزب ذي الممارسات الخاصة التي تتميز كمنهج، فاطمة الزهراء في خطبتها (.. َ}كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ {، أو نجم قرن للشيطان، و فغرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها بأخمصه، و يخمد لهبها بسيفه، مكدودا في ذات اللّه، و مجتهدا في أمر اللّه، قريبا من رسول اللّه، سيد

---

[51] / قال المولى النراقي في عوائد الايام : أن كلمة مولى تطلق على معان : على المعتِق ، فمن أعتق رجلا فهو مولاه (أي المعتِق) من أعلى ، وعلى المعتَق فمن اعتقه رجل يكون المعتَق مولى ذلك الرجل ، وعلى الحليف فمن حالف رجلا ـ بالمعاقدة ـ صار مولاه ، وعلى المولى بالإسلام فمن أسلم على يد آخر صار مولاه بالإسلام ، وعلى غير العربي فيقال فلان مولى أي غير عربي ..

أولياء اللّه، مشمّرا ناصحا، مجدّا كادحا، و أنتم في رفاهيّة من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربّصون بنا الدوائر، و تتوكّفون الأخبار، و تنكصون عند النزال، و تفرّون عند القتال، فلمّا اختار اللّه لنبيّه دار أنبيائه، و مأوى أصفيائه، ظهر فيكم حسيكة النفاق، و سمل جلباب الدين، و نطق كاظم الغاوين، و نبغ خامل الأقلين، و هدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، و أطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفا بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، و للغرة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافا، و أحمشكم فألفاكم غضابا، فوسمتم غير أبلكم، و أوردتم غير شربكم، هذا و العهد قريب، و الكلم رحيب، و الجرح لمّا يندمل، و الرسول لمّا يقبر، ابتدارا زعمتم خوف الفتنة {ألا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ })[٥٢].

ونجد ممارسات هذا الحزب متميزة سواء في السياسة أو في الفكر أو في المجتمع.. ففي السياسة صمم على إبعاد أهل البيت (عليهم السلام)، وانتهى به الحال إلى أن بعضه مع تصريحه بأنهم (لو ولوها عليا لسار بهم على الطريقة المثلى) لكنه في الأخير يقول: إن قريشا [٥٣]قد

---

[٥٢] / بحار الأنوار ٢٩/ ٢٢٥

[٥٣] / مر فيما سبق أن عليا كان يتشكى من قريش وظلمها ، وقريش هنا ليس المقصود منها من يرتبط معها بالنسب ، وإلا فإن عليا عليه السلام من علياء قريش ورسول الله كذلك ، وبني هاشم ، ولكن تشكيه هو من الملأ القرشي ، والحزب الذي كان كافرا ، واليوم يريد التسلط .

اختارت لنفسها ووفقها الله!.وفي الفكر راح مرة يستجدي على موائد أهل الكتاب عفن أفكارهم، وانتخب منهم القصاصين، والوعاظ وأطلق حناجر هؤلاء في مساجد المسلمين لكي يشغلوهم بالاسرائيليات عن واقعهم،وعن الفكر الأصيل، وأخرى يتجاوز أحكام القرآن ونصوصه بدعوى الاجتهاد، وغير ذلك.

وفي الاجتماع عادت العصبيات القبلية، والممارسات الجاهلية، وكأن الدين كان قشرا للاستهلاك والإعلام.. فمع أن الدين جاء بمنظومة جديدة من القيم والمثل إلا أن هذه لم تكن لتجد لها مكانا بينهم فتعاملهم مثلا مع غير العرب ـ بل حتى غير القرشيين كما هو حال الأنصار ـ لم يكن ليحكمه الدستور الالهي، والأخلاق الدينية، فبمجرد أن يكون المسلم غير عربي، فهو عند هذا الحزب في درجة ثانية.. ولذا فأنت ترى أن مثل عمار بن ياسر وهو من هو عند رسول الله لكنه عند هؤلاء يبقى (ابن السوداء)، وأم ايمن وهي التي شهد لها رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنها (من أهل الجنة) تبقى عندهم (سوداء أعجمية)!!

ولقد كان لهذا التعامل أثره السيء في نفوس المسلمين غير العرب، ولولا أن تدارك الله الناس برحمته من خلال أهل البيت الذين جسدوا تعاليم الإسلام في تعاملهم، وسلوكهم، لكان الوضع شديد الخطورة. فهاهو رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: خمس لا أدعهن حتى الممات: ◻ والأكل على الحضيض مع العبيد.. لتكون سنة من بعدي)، وفي الوقت الذي قامت الخلافة فيه بعد النبي بتحويل فكر قريش إلى مشروع عملي، ونفذت فيه التمييز

القائم على أساس العرق والعنصر واللغة، فكان لقريش القدح المعلى في الخراج والغنائم، ثم سائر العرب، وبعدهم الموالي، وأما العبيد فكانوا في قعر الحضيض..

وجاء أمير المؤمنين (عليه السلام) ليقول: والله لو كان المال لي لسويت بينهم كيف والمال لهم؟.. فلقد جاءت امرأة عربية ومعها مولاتها (الاعجمية)، وقد أعتقتها ليوم سبق، فأعطاها كما أعطى مولاتها، ولما استنكرت ذلك موضحة له (!!) أنها قد أعتقتها ليوم مضى وأنها أعجمية..! قبض قبضة من التراب وفته أمامها وقال: ما جعل الله لبني إسماعيل فضلا على بني إسحاق.

وظل هذان الخطان: خط يمثل رحمة الإسلام وعطفه على الإنسان، وينطلق من منطلق (كلكم لآدم وآدم من تراب) وأنه (لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى) وكان يجسده أهل البيت(عليهم السلام)، وخط آخر، يعزل غير العرب، ويمتهن المسلم العبد، ويعذب الموالي لو تجرؤا على الزواج من عربية![54]. بل لقد وصل الحال ببعض الخلفاء والحكام إلى التفكير بنفي من لم يكن عربيا من بلاده، وبقتل البعض الآخر، باعتبار أنه قد (كثرت الحمراء) ـ أي غير العرب.

بينما قام أهل البيت(عليهم السلام) بتأكيد انصهار هذه المجموعات في الإسلام وأنه لا نسب ولا حسب فوق

[54] / رُفع (!!) إلى والي المدينة إبراهيم بن هشام أن مولى ـ غير عربي ـ قد تزوج امرأة عربية من بني سليم ، فأرسل إليه وفرق بينهما وجلده مائتي سوط ، وحلق رأسه وحاجبه ولحيته !!

الدين، ولهذا يكون سلمان الأعجمي المولى والذي هو بحسب التصنيف القرشي عبد مشترى (منا أهل البيت). وتكون بعض أمهات الأئمة(عليهم السلام) من غير العرب سواء من فارس أو من الروم..

بل حتى الذي كانوا في بيوتهم كعبيد أو إماء ـ ينالون حريتهم بعد التهذيب والتربية ـ كانوا يرتقون في مدارج الكمال حتى يفوقوا نظراءهم من (الأعراب الأقحاح)!

وأمامنا امرأة كانت في بيت الإمام الصادق (عليه السلام) ، ويمكن أن تكون مثالا في كيفية تعامل الأئمة مع مواليهم وخدمهم. ذلك أن من المشاكل اليوم التي تعيشها بعض الأسر المسلمة سوء تعاملها مع (خدمها) و (خادماتها) [٥٥].

إننا نلحظ أن الأئمة (عليهم السلام) قد احتضنوا مجموعة من العبيد والجواري، وهؤلاء ربما كانوا لو لم يوفقوا للالتحاق بأهل البيت، والكون في بيوتهم لعادوا ككثير غيرهم من ذلك الكم الذي عوضته الخدمة مهانة، والاسترقاق جهلا.. بينما شاء لهم توفيق الله أن يكونوا مع

---

[٥٥] / نقلت الصحف قبل مدة صورة سيئة عن العلاقة بين ربة بيت في لبنان وبين خادمة في بيتها صغيرة السن ، وقد نقلت هذه الخادمة التي اضطرتها ظروفها الصعبة للعمل في ذلك البيت ، إلى المستشفى لتتحول قصتها إلى قضية فقد تبين أن ربة البيت كانت تمارس بحقها أسوأ أنواع العذاب والتنكيل ، من الضرب ، والتجويع ، والتقييد بالاسلاك إلى حد أنهم قد يضطرون إلى بتر بعض أطرافها التي قيدت فترات طويلة بالاسلاك !!

أهل البيت(عليهم السلام)، فأنتجوا علما وعملا، يتفوقون به على نظرائهم الأحرار، فتلك أم أيمن بركة مولاة النبي (صلى الله عليه وآله) والتي شهد لها النبي أثناء حياتها بأنها من أهل الجنة وهذا قنبر مولى أمير المؤمنين(عليه السلام)كيف صعد إلى أن أصبح بمثابة العضد لأمير المؤمنين (عليه السلام)، وجون الذي صار شهيدا وريحه أطيب من المسك [٥٦].. وغيرهم.

وممن نال شرف الالتحاق بخط أهل البيت ووجد في بيوتهم، وتربى على أيديهم، سعيدة التي تعرفها المصادر الرجالية بأنهما مولاة لأبي عبد الله الصادق (عليه السلام). وأحيانا بأنها مولاة أم فروة، وقد ذكر عنها الإمام الرضا(عليه السلام)أنها كانت (من أهل الفضل وكانت تعلم كلما سمعت من أبي عبد الله ع فإنه كان عندها وصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) و إن جعفرا قال لها اسألي الله الذي عرفنيك في الدنيا أن يزوجنيك في الجنة) [٥٧].

والذي يظهر أن الذي أوصلها إلى تلك المرتبة العالية أمور:

* احترامها الفائق لرسول الله (صلى الله عليه وآله): بينما نجد بعض المسلمين وإلى يومك هذا يسيئون الأدب في حق رسول الله بينما تعبدنا القرآن وأمر المسلمين بأن

---

[56]/ يراجع رجال حول أهل البيت ج ١ للمؤلف.

[57] / رجال الكشي

{لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ} وفي هذه الجهات الأخلاقية لا ينبغي أن يختلف الحال بين الحياة والممات إلا أننا نجد أن قسما من المسلمين لا يعتني بذلك فلا يهمه أن يهين موضع قبر النبي وأن يتعمد استدباره من غير حاجة إلى ذلك، ويعتبر أن النبي قد مات ولا أثر له بعد ذلك، تماما كما نقل عن الحجاج الثقفي الذي قال (ما بالهم يطوفون بأعواد ورمة بالية - يقصد قبر نبي الرحمة ومنجي الأمة -.. هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك؟) [٥٨]. إن إساءة الأدب في حق رسول الله درجات تبدأ من الامتناع عن زيارته، وتمر ببعض الممارسات التي يظهر منها عدم الاعتناء بمقامه الشريف بذرائع مختلفة، وتنتهي بمقالة الحجاج.

في المقابل رأى أهل البيت(عليهم السلام) وشيعتهم أن مما يقرب المرء من الله زيادة احترامه للنبي حيا وميتا كيف لا، وقد أمر بالصلاة عليه في كل حين حتى عدت الصلاة عليه أفضل أعمال الإنسان، وأثقل ما يوضع في الميزان؟ وهذا ما جرى عليه أتباع أهل البيت، وأما سعيدة مولاة الإمام الصادق (عليه السلام)، فقد كانت لا ترى في المسجد إلا مسلمة على النبي (صلى الله عليه وآله).

وكان أئمة أهل البيت يؤدبون أتباعهم ومواليهم على احترام ما يتصل برسول الله، باعتباره رمزا للنبوة، وأنه يكتسب قداسة من قدس من أضيف إليه ولهذا لما ائتمن

---

58 / شرح نهج البلاغة ١٥/ ٢٤٢

الإمام الصادق(عليه السلام)سعيدة على بعض ما يرتبط برسول الله من آثار، ورآها قد قصرت في حفظها وصيانتها، ولم تتعامل معها بالمقدار الذي يقتضيه انتسابها للرسول، وبخها وقرعها، وأغلظ لها القول.. مما لم يكن معهودا من طريقة الإمام نفسه، وخصوصا بالنسبة إلى سعيدة تلك المرأة الفاضلة.

فقد حدث محمد بن عبد الجبار عن أبي القاسم عبد الرحمن بن حماد عن محمد بن سهل عن إبراهيم بن أبي البلاد عن عيسى بن عبد الله عن محمد بن عمر بن علي عن أمه أم الحسين بنت عبد الله بن محمد بن علي بن الحسين قالت بينا أنا جالسة عند عمي جعفر بن محمد إذ دعا سعيدة جارية كانت له و كانت منه بمنزلة فجاءته بسفط فنظر إلى خاتمه عليه ثم فضه ثم نظر في السفط ثم رفع رأسه إليها فأغلظ لها قال قلت: فديتك كيف و لم أرك أغلظت لأحد قط؟ فكيف بسعيدة!! قال: أتدرين أي شيء صنعت يا بنية هذه راية رسول الله ص العقاب أغفلتها حتى انكبت ثم أخرج خرقة سوداء ثم وضعها على عينيه ثم أعطانيها فوضعتها على عيني و وجهي [59] ..

* الوعي والمعرفة: فإنه في منظومة القيم الدينية يتحدد موقع الإنسان بناء على علمه ووعيه (وإيمانه) فيرتفع فيها {الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} بينما يبقى الجهلة، وغير الواعين في نهاية القائمة، ولا يختلف في هذا أن يكون المرأ من عرق معين أو عنصر

---

59 / بحار الأنوار ٢١٥/٢٦

خاص.بل المدار على تحليه بالعلم والمعرفة.

وكانت سعيدة (من أهل الفضل) وعرفت وفهمت كلما سمعته من أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) وهذا يعني أنها قد احتوت على علم كثير. فنحن نجد أن الإمام (عليه السلام) عندما لا يريد الإجابة في وقت معين، لأنه يرى الظرف غير مناسب، يرسل بالجواب شفويا إلى السائل، ومعلوم أن تحمل الجواب يحتاج إلى قدر من المعرفة لكيلا يؤدي عكس المراد أو أقل من المطلوب.وفي هذا ربما أرسل الإمام(عليه السلام)سعيدة إلى من شاء من شيعته لإخبارهم بالإجابة التي امتنع عن ذكرها لهم في وقت سابق.

فقد روى الشيخ الطوسي في التهذيب عن أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن سليم الفراء، عن الحسين بن مسلم، قال: كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) إذ جائه محمد بن عبد السلام، فقال له: جعلت فداك يقول لك جدي: إن رجلا ضرب بقرة بفأس. فسقطت، ثم ذبحها. فلم يرسل معه بالجواب، ودعا سعيدة مولاة أم فروة، فقال لها: «إن محمدا جاءني برسالة منك، فكرهت أن أرسل إليك بالجواب معه، فإن كان الرجل الذي ذبح البقرة حين ذبح، خرج الدم معتدلا، فكلوا وأطعموا، وإن كان خرج خروجا متثاقلا فلا تقربوه «.